أنطوان دي سانت إكزوبيري



أرض الرجال

روائع الروايات العالمية



أرض الجبال

... كان «بارك» في غمرة تحرّره، كان يستشعر سعادة صمّاء، فهو منذ الآن يشارك، على قدم المساواة، الناس الآخرين في هذه الحياة، في هذه الشمس، في حق الجلوس هنا تحت عريشة ذاك المقهى، إنه يحتفل بإنسان حر، أراد أن يحسّ الجميع هذا الشعور، شعور الفرح بالحرية... لكنه أُحبط بعد أن لاحظ، أن أحداً لم يأبه لوجوده، حتى النادل، فقرّر الذهاب مع رفيقه إلى مكان آخر، وصعدا نحو «القصبة» حيث هرعت إليهما الراقصات البربريات الصغيرات.

العذوبة الأليفة ما جعل «بارك» يميل إلى الظن أنه عل
يخلق خلقاً جديداً: إنهنّ، هنّ، اللواتي كنّ يرحبن به
الحياة من غير أن يدرين أنهنّ يفعلن ذلك. أخذن
يقدّمن إليه الشاي بظرف ولطافة، ولكن مثلما كنّ يف
كان شخصاً آخر. وأراد «بارك» أن يروي قصة ب
سعيدات من أجله لأنه هو كان في سعادة، وأضاف و
يستثير إعجابهنّ ودهشتهنّ: اسمي هو...

ISBN 978-9953-28-108-4



EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban



عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان

أرض الرجال



النص كاملاً

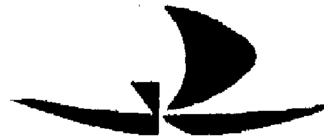
ماريان

روائع الروايات العالمية

انطوان دي سانت إكزوبيري

أرض الرجال

تعريب
حسيب الكيالي



عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان

ص.ب. ٦٢٨ - تلفاكس ٣٠٥٩٦١ ١ ٠٠٩٦١ - تلفون ٦١٦٠٣٣ ٣ ٠٠٩٦١
E-mail: oueidat_editions@hotmail.com

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978 9953-28

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هنري غيوميه، رفيقي

أهدي إليك هذا الكتاب

تعلمنا الأرض عن انفسنا اكثر مما تفعل الكتب كافة ، لأنها تقاومنا . والانسان يكتشف نفسه عندما يقيسها بالعقبة . ولكن الوصول اليها لا بد له من أداة . انه يحتاج الى منجر أو محراث . فالفلاح ، في حقله ، ينتزع شيئاً فشيئاً بعض أسرار الطبيعة ، والحقيقة التي يستخلصها إذ يفعل حقيقة كونية . وهكذا الحال في الطائرة أداة الخطوط الجوية . انها تمزج الانسان بالمعضلات القديمة جميعها ، تضعه في قلبها .

وما تزال في بالي ذكرى أول ليلة طيران لي في الارجنتين: قاتمة لم يلتمع خلالها إلا أضواء قليلة متناثرة في السهل كأنها النجوم.

كان كل منها يشير ، في ذلك البحر اللّجيّ من الظلمات إلى معجزة وجدان . ففي هذا المأوى إنسان يقرأ ، يفكر ، يتابع البوح والنجوى . وفي ذلك الآخر ربما كان إنسان يحاول سبر أغوار الفضاء ويفنى في حسابات تتعلق بأسرار هذه المجرة . وههنا إنسان يحبُّ . هذه النيران التي تلمع في الريف كانت تطالب بغذاء لها ، حتى أكثرها خفاءً ، نار الشاعر أو المعلم أو النجار . ولكن بين هذه النجوم الحيّة كم من نوافذ موصدة ، كم من أناس نائمين ...

لا بد لك من أن تلملم شمث روحك . لا بد لك من أن تواصل بعض هذه النيران التي تضطرم من بعيد الى بعيد في الريف .

الفصل الاول

الخط

كان هذا عام ١٩٢٦ ، وكنت قد التحقت منذ أمد يسير ، طياراً حدثاً، بشركة « لاتيكوير » التي أمنت الاتصال بين « طولوز » و « داكار » قبل «الآيروبوستال» و«الاير فرانس» من بعد . هنالك رحت أتعلم المهنة . ومثلي مثل بقية الرفاق كنت أمر بفترة التدريب التي بها مروا قبل ان يظفروا بشرف قيادة الطائرة . تجارب طائرات ، تنقلات بين طولوز وبيربينيان ، دروس كئيبة في الأرصاد الجوية في قرارة مرأب مكشوف جليدي . وكنا نحيا في الخوف من جبال اسبانيا التي لم نكن نعرفها بعد ، وفي توقير القدامى من الرفاق .

هؤلاء القدامى كنّا نصادفهم في المطعم صلاباً ، متعالين بعض الشيء ، يجودون علينا بنصائحهم من ذرى عالية . وحينما كان أحدهم يؤوب من آليكانت او الدار البيضاء يدخل علينا المطعم متأخراً وقد بلل المطر سترته الجلدية فيدنو منه احدنا على استحياء يسأله عن رحلته واذا اجوبته المختصرة ، والايام العاصفة تخلق لنا عالماً اسطورياً طافحاً بالفخاخ والاشراك ، بالقنن التي تبرز لك فجأة ، بالتيارات الهوائية القادرة على اقتلاع الأرواح السامقة من الأرز .. واذا الف تنين أسود يقوم على حراسة الوديان ، واذا حزم البروق تتوج أعراف الجبال . هؤلاء القدامى كانوا يغذون ، في مهارة ،

احترامنا لهم . ولكن ، بين حين وآخر كان أحـدهم لا يعود ويظل موقّراً الى الأبد .

واني لأذكر مـرة عاد فيها «بوري» ، الذي قتل فيا بعد في «الكوربيير[1]» . وكان هذا الطيار القديم قد جاء فجلس بيننـا وشرع يأكل متثاقلاً من غير ان ينبس ، وكتفاه لا تزالان كأنها مهيضتان تحت وطأة الجهد . وكان ذلك في امسية احـد الأيام المكفهرة الجهمة ، اذ السماء من اول خط الطيران الى آخره ، متلبدة ، والجبال تبدو للطيار كأنها تتدحرج في حمأة ، مثل تلك المدافع التي تقطعت حبالها فراحت تتقلب على ظهور المراكب الشراعيـة في الايام الخوالي . ونظرت الى « بوري » ، بلعت ريقي وغامرت بسؤاله ما اذا كان طيرانه قاسياً . ولم يكن « بوري » ليسمع . كان جبينه متثنياً وقـد اكبّ على صحن طعامـه . في الطائرات المكشوفة اذا كان الطقس سيئاً ، ينحني الطيار خارج حاجز الريـح حتى تكون رؤيته أحسن ، وصفعات الريح تظلّ تصفر في أذنيه أمداً طويلاً . واخيراً رفـع « بوري » رأسه ، وبدا أنه يسمعني ، انه يتذكر ، وانطلق ، فجأة ، بضحكة صافية . وهذه الضحكة أسرت قلبي ، لان « بوري » كان نادراً ما يضحك ، هذه الضحكة الموجزة التي افصحت عن تعبه . ولم يعط شرحاً آخر إلاّها لانتصاره ، وحنى رأسه وعاود مضغ طعامـه في صمت . ولكن في غبشة المطعم ، بين هؤلاء الموظفين الصغار الذين جاؤوا الى هنا ليريحوا أنفسهم من عناء أعمالهم اليومية المتواضعة ، بدا لي هذا الرفيق ذو الكتفين الثقيلتين رائع النبالة . كان يدع للملاك ، المختبىء تحت لحائه القاسي ، الملاك الذي قهر التنين ان يبزغ .

وجاء أخيراً ذلك المساء الذي دعيت فيـه الى مكتب المدير . قال لي في بساطة :

— ستسافر غداً .

---

(١) سلسلة جبلية متممة للبيرنيه الفرنسية أعلى قممها يبلغ حوالي ١٢٣١ متراً .

وظللت هنالك ، واقفاً ، منتظراً ان يصرفني . ولكن ، بعد صمت ، أضاف :

ـ انت تعرف التعليمات جيداً ؟

لم تكن للمحركات ، في ذلك العهد ، وسائل الوقاية والسلامة التي لمحركات اليوم . كانت بغتة ، ومن غير انذار سابق ، تفلتنا في قلب ضجة وعجيج ماعون مطبخ يتكسر . واذ نحن نستسلم لقمم جبال اسبانيا التي خلت من أي ملجأ امين ، وكنا نقول : « هنا عندما ينكسر المحرك لا تلبث الطائرة ان تحذو مع الاسف حذوه » . ولكن الطائرة شيء يعوض . المهم ، قبل كل شيء ، ألا تدنو من الصخرة وانت عم عنها . ولذلك كانوا يحظّرون علينا ، تحت طائلة اشد العقوبات ، ان نطير فوق بحار الغيوم في المناطق الجبلية إذ لو اصاب الطيار عطل وهو يغوص في هذا النديف الابيض ، لاصطدم بالقمم من غير ان يراها .

ولذلك كان صوت وئيد يلح ، ذلك المساء على هذه الفقرة من التعليمات :

ـ جميل جداً ان تمخر السماء في اسبانيا مهتدياً بالبوصلة فوق بحار الغيوم ، جميل جداً ورشيق جداً ، ولكن ...

ويزداد الصوت تؤدة :

ـ ... ولكن تذكر : تحت بحار الغيوم ... تنتظرك الابدية .

هو ذاك العالم الهادىء الذي لا حد لتجانسه وبساطته ، والذي تستكشفه عندما تنغمس في السحب ، ها هو ذا يتخذ في عيني معنى كان حتى ذلك الحين مجهولاً . هذه العذوبة تصبح فخاً . وطفقت اتخيّل ذلك الفخ الشاسع الابيض ، الممتد هنا تحت قدمي . لم يكن ما يهيمن في الاسفل اضطراب الناس ، او ضجيجهم لا ولا عربات المدن ووسائل مواصلاتها ، ولكنه صمت اشد إطلاقاً وسلام اكثر عمقاً. وغدا هذا الدبق الابيض في عيني التَخْمَ الفاصل بين الواقع وغير الواقع ، بين المعروف وغير المعروف . وكنت قد بدأت اعرف ان اي مشهد لا يكون له معنى إلا من خلال ثقافة ما او حضارة او

مهنة . ان الجبليين هم ايضاً يعرفون بحار الغيوم ولكنهم لا يكتشفون فيها هذا الحجاب الخرافي .

لما خرجت من ذلك المكتب أحسست بزهو طفولي . جاء دوري وسأكون مع الفجر مسؤولاً عن وسق من المسافرين، مسؤولاً عن بريد إفريقيا. ولكنني كنت احس ايضاً خشوعاً عظيماً ، احس اني سيء العدة . كانت اسبانيا فقيرة بالملاجيء . وكنت أخشى اذا انا تعطلت ألا اقع على مهبط امين . وانحنيت على خرائطي القاحلة من غير ان اعثر فيها على ما احتاجه من تعليم . ولهذا ذهبت ، والقلب طافح بهذا المزيج من الحياء والزهو ، أقضي الليل عند رفيقي « غيوميه » . وكان « غيوميه » قد سبقني على تلك الطرق . وهو على علم بالأحابيل التي تسلمك مفاتيح اسبانيا . وكان عليّ ان أتلقى الدرس الأول من فم « غيوميه » .

ولما دخلت عليه ابتسم وقال :

— انا اعرف الخبر . هل انت مسرور ؟

ومضى الى الخزانة ليحضر نبيذ « البورتو » والاقداح ثم عاد اليّ وهو لا ينقطع عن الابتسام :

— سنشرب نخب هذا . وسترى ان كل شيء سيسير على ما يرام .

كان يسفح ثقة مثلما يسفح المصباح الضياء ، ذلك الرفيق الذي سيضرب فيما بعد الرقم القياسي للرحلات البريدية فوق جبال « الآند » والاطلسي الجنوبي . وكان ذلك المساء ، قبل بضع سنوات من ضربه الرقم القياسي ، يلبس قميصاً قد شمر كماه ، وذراعاه الواحدة على الأخرى تحت المصباح وهو يقول لي في بساطة آسرة مبتسماً اعذب الابتسام واشده حفاوة: «العواصف، الضباب ، الثلج انها ستزعجك احياناً . فاذكر كل اولئك الذين عرفوا هذا قبلك ، وقل لنفسك هذا القول اليسير : ما نجح فيه الآخرون استطيع انا ايضاً ان انجح فيه » . ولكنني في هذه الاثناء فتحت خرائطي وسألته

ان يراجع مع ذلك خط الرحلة معي . واذا انا منحنٍ تحت المصباح مستند الى كتف الرفيق القديم يعاودني ما يشبه طمأنينة المدرسة وسلامها .

ولكن ، يا للدرس العجيب في الجغرافيا الذي تلقيته ثمة ! لم يكن « غيوميه » يدرسني اسبانيا ، وانما كان يجعل من اسبانيا صديقة لي . لم يحدثني عن توزيع المياه او عن السكان او عن الثروة الحيوانية فيها. لم يكلمني على غواديكس ، ولكن كلمني على ثلاث شجرات من البرتقال قرب غواديكس ، على كنف حقل من الحقول وقال لي : « احذرها ، بيّنها على خريطتك .. » ومنذ تلك اللحظة شغلت هذه البرتقالات الثلاث على خريطتي مكاناً اكبر من المكان الذي تشغله سلسلة السييرا نيفادا ذاتها . لم يحدثني عن لوركا . ولكن عن مزرعة بسيطة قرب لوركا . مزرعة حية . عن صاحب المزرعة وصاحبتها . واتخذ هذان الزوجان ، الضائعان في الفضاء على بعد الف وخمسمائة كيلومتر ، اهمية لا حد لها . كانا ، في مقامهما الوطيد على سفح جبلهما المنيع ، وتحت نجومهما ، كأنهما حارسا منارة ، على اهبة إغاثة الناس.

كنا ننتزع دقائق ، يجهلها جميع جغرافيي العالم ، من النسيان الذي يغلفها ، من تباعدها الذي يندُّ عن التصور . ذلك لان نهر الايبر الذي يروي مدناً كبيرة هو وحده الذي يعني الجغرافيين ، لا تلك الساقية المختبئة تحت الاعشاب ، غرب موتريل ، تلك المرضع التي تعول حوالي ثلاثين زهرة : «احذر الساقية فانها تفسد الحقل .. احملها على خريطتك». آه ، وإني سأذكر ثعبان الموتريل ذاك ! لم يكن في منظره ما يبعث على الريبة. وكانت وسوسته اللطيفة لا تكاد ، إلا بالجهد ، تؤنس بضع ضفادع . ولكنه لم يكن ينام إلا بعين واحدة . كان يتمدد تحت الاعشاب ، في فردوس ذلك الحقل الصالح للهبوط ، ويراقبني هنالك ، على بعد ألفي كيلومتر من هنا وفي وكده ان ينتهز اول فرصة ليحيلني الى حزمة من اللهيب ...

وتلك الخراف الثلاثون تقف هناك ، على كتف الهضبة مستعدة للنزال . كنت انتظرها : « انك تحسب هذا الحقل خالياً وما هي إلا لحظة حتى

تنحطّ هذه الخراف تحت عجلاتك .. » وامـــا انا فكنت اجيب ببسمة مدهوشة عن مثل ذاك الخطر الغادر .

كانت اسبانيا خريطتي تستحيـل شيئاً فشيئاً تحت ضوء المصباح الى بلد من بلاد الجان . وكنت اشير بصليب الى الاماكن الامينة والأشراك . اشرت الى ذلك المزارع ، والخراف الثلاثين ، والساقية . وعينت على وجه الضبط موضع تلك الراعية التي اهملها اهل الجغرافيا .

حينما استأذنت « غيوميه » بالانصراف احسست الحاجة الى السير في تلك الامسية الشتوية القارصة . رفعت قبة معطفي ، وانطلقت بين عابري سبيل يجهلون ، أنزّه حماسة وليدة . كنت مزهواً ان اسير جنباً الى جنب مـع هؤلاء المجهولين ، وانا احمل سري في قلبي . هؤلاء الاغراب السادرون كانوا يجهلونني ، ولكنهم سيعهدون اليّ مع مترع النهار بهمومهم واشواقهم احملهـا في وسق الاكياس البريدية . انهم بين يدي انا سيتخلصون من عبء آمالهم . وهكذا كنت ، وانا متـدثر بمعطفي ، اخطو خطوات الحماة . وأما هم فما دروا شيئاً معاناتي .

لا، ولم يصلهم من الويل ما وصلني من رسائل. لان تلك العاصفة الثلجية التي ربما كانت تتهيأ الآن إنما تهمُّ جسدي انا ، وتعقّـــد رحلتي الاولى . ونجيمات كانت تخبو واحدة إثر واحـدة فكيف يمكن لهؤلاء المتنزهين ان يدروا بذلك ؟ كنت وحيداً في النجوى . وكانت تأتيني الاخبار عن مواقع العدو قبل المعركة ...

بيد ان هذه الاوامر اليوميـة التي تلزمني على نحو خطير تلقيتها قرب واجهة زجاجية مضاءة تتلألأ فيها هدايا عيد الميلاد . ههنا تبدو كنوز الدنيـا كلها معروضة في الليل وانا اترشف الثمل المُدِلّ ، ثمـل الاعراض . كنت محارباً مهدّداً فما عسى ان تعنيني هذه الحلى الباهرة المعـدة لحفلات المساء ، هذه الاغطية الجميلة للمصابيح ، هذه الكتب . كنت استحم في الرذاذ واقضم، وانا ملاح الخط ، ثمرة ليالي الطيران المـرّة .

كانت الساعة الثالثة صباحاً لما أوقظوني . دفعت ستائر النافـذة الخشبية دفعة جافة فرأيت ان السماء تمطر على المدينة . ولبست ثيابي متجهماً .

بعد نصف ساعـة كنت اجلس على حقيبتي الصغيرة ، انتظر بدوري ، على الرصيف اللامع بالمطر ، ان يمر بي « الامنيبوس[1] » فأستقله . ان كثيراً من الرفاق قبلي قد عانوا ، في اولى رحلاتهم ، مثل هذا الانتظار وفي القلب انقباض يسير . وبرزت آخر الامر من زاوية الشارع مركبة الايام الماضية التي تصدر عنها ضجة حديد ، واصبح لي الحق مثـل الرفاق ، في ان انحشر انا ايضاً في المقعد الطويل ، بين رجل الجمرك الذي لما يستيقظ تماماً من نومـه وبعض موظفي المكاتب . وكانت تفوح من المركبة رائحة الهواء المحبوس ، رائحة الادارة الغبراء ، والمكتب القديم الذي تغرز فيه حيـاة إنسان . وكانت المركبة تتوقف كل خمسمائة متر فتحمل كاتباً اضافياً ، رجـل جمرك اضافياً ، مفتشاً . وكان اولئك الذين هجعوا في المركبة يردّون بهمهمة جشاء على تحية القادم الجديـد الذي ينحشر ما وسعه بينهم ثم لا يلبث ان يغفو هو ايضاً كما يغفون . وانها لعربة كئيبة تلك التي كانت تسير على بلاط طرق « طولوز » غير المنتظم ، وطيار الخط قـد اختلط بالموظفين فلا يتميّز من احدهم بشيء ... ولكن اعمدة المصابيح تجرى ، ولكن الحلبة تدنو ، ولكن هذه المركبة العتيقة المترجرجة لم تعد غير شرنقة سيخرُجُ منهـا الانسان خلقاً جديداً . .

وهكذا فقد سبق لكل واحد من الرفاق ان احس ، في صباح مثل ذلك الصباح ، تحت رداء التبعية الهش ، أن المسؤول عن بريد اسبانيا وإفريقيا يولد فيه ، يولد ذلك الانسان الذي ، بعد ثلاث ساعات ، سيجابه في قلب البروق ، مارد الاوسبيتاليه .. حتى اذا تمت له الغلبة كان له ان يتخذ قراراً ،

---

(١) كلمة لاتينية معناها : للجميع . وهي مركبة كبيرة تشدها بضعة جياد تقوم بما تقوم به « باصات » الاحياء اليوم من تأمين المواصلات بين احياء المدينة الواحدة .

بمحض اختياره لانه هو الآمر المطلق ، أيتخذ طريق البحر او يثب مباشرة فيطير فوق سلسلة جبال « ألكوى » ، ذلك الانسان الذي سينازل العاصفة والجبل والمحيط .

وهكذا فقد سبق لكل رفيق من الرفاق – وهو مختلط بذلك الفريق الغُفْل تحت سماء الشتاء في «طولوز» ، ذات صباح مماثل – ان احس في نفسه نمو ذلك السيد الذي سيخلف وراءه ، بعد خمس ساعات ، أمطار الشمال وثلوجه ويطلق الشتاء ويخفف من قيود المحرك ويبدأ هبوطه الى قلب الصيف تحت شمس « اليكانت » الباهرة .

وغابت تلك المركبة العتيقة ولكن خشونتها وشظفها ما برحا حيَّيْن في ذاكرتي . انهما يرمزان حقاً الى التأهب الذي لا غنى عنه لأفراح مهنتنا القاسية . كان كل مـا في المركبة يتخذ مظهراً من الزهد آسراً ، واني لأذكر أني فيها قد بلغني ، بعد ثلاث سنوات ، من غير ان تندّ اكثر من عشر كلمات ، نبأ موت الطيار « ليكريفان » ، وهو واحد من مائة رفيق من رفاق الخط أُخذوا ، في يوم ، او في ليلة ضباب ، الى تقاعدهم الأبدي .
وكانت الساعة كذلك الثالثة صباحاً ، وهذا الصمت ذاته يهيمن على المركبة ، حينما سمعنا المدير ، الذي كان مختبئاً في الظلمة ، يرفع صوته نحو المفتش :
– لم يهبط « ليكريفان » الليلة في الدار البيضاء .
– آه ! آه !

هكذا أجاب المفتش . وكأنما اقتلع من سياق حلمه راح يبذل الجهد ليستيقظ ، ليظهر حمية ، وأضاف :
– آه ! نعم ? لم يفلح ? هل رجع ?
وجاء الجواب من قاع المركبة ببساطة: «كلا». وانتظرنا التكملة ولكن ، ما من كلمة أخرى غيرها . وكلما تساقطت الثواني اصبحت البداهة أشد أن

« كلا » هذه لن تعقبها كلمة أخرى ؛ ان « كلا » هــذه لا تُنقَض ، ان لكريفان لم يهبط لا في الدار البيضاء ولا في اية دار غيرها .

وهكذا ، في ذلك الصباح ، في فجر رحلتي الأولى ، خضعت انا ايضاً لطقوس المهنة المقدسة ، أحسستني تعوزني الثقــة بنفسي وانا انظر ، من خلال الزجاج ، الى بلاط الشارع حيث تلمع المصابيح ، وحيث يرى الرائي سَعفاتٍ كبيرة من الريح[1] تتراكض على رامات الماء . وطفقت اقول في نفسي : « في رحلتي الأولى ...حقاً .. حظي قليل» . ورفعت نظري الى المفتش : « أهذا طقس سيء ؟ » فرمى المفتش الزجاج بنظرة عادية وقال : « هــذا يدلُّ على شيء » وساءلت نفسي ما هي دلائل الطقس السيء . لقد محا « غيوميه » ، العشية ، بابتسامة واحدة كل الهواجس السيئة التي أثقلنا الرفاق القدامى بها ، ولكن هذه الكلمات عادت الى ذاكرتي: «من لا يعرف الخط ،حصاة حصاة، فإني أرثي له ... اذا صادفته عاصفة ثلجية ، أرثي له ... آه ! نعم ! إني أرثي له !... وانهم يودُّون من ذلك ألا يهبط قدرهم في اعيننا ، فيهزُّون رؤوسهم وينظرون الينـا نظراً مشفقاً ، مربكاً بعض الشيء ، كأنهم يرثون فينا سذاجتنا والغرارة .

والحقيقة ، كم من رفاقنا كانت له هذه المركبة بمثابة الملاذ الأخير؟ ستون، ثمانون ؟ أقلّهم هذا السائق الصموت نفسه ، ذات صباح ماطر. ورحت انظر فيما حولي : نقاط مضيئة تبرق في الظلمة تنبعث من لفائف تنبىء عن تأملات مدخنيها . تأملات متواضعة لمستخدمين شاخوا، لِكَمْ منا كان هؤلاء الرفاق هم الموكب الجنائزي الاخير ؟

واستطعت ان استرق السمع الى الاسرار التي كانوا يتبادلونهـا بصوت خفيض . انها تدور حول الامراض والمال والهموم المنزلية الحزينة ، وتكشف

---

(١) السعفة جريدة النخل ، والرامة البقعة من الماء الراكد في الارض او الشارع . وتهب الريح فترسم اشكال سعفات على الماء . هذه هي الصورة التي رسمها المؤلف .

عن اسوار السجن القاتم الذي زجّ فيه هؤلاء الناس انفسهم . وعلى حين غرة ظهر لي وجه القدر .

ايها الموظف القديم ، يا رفيقي الماثل هنا ، ما من احد هيأ لك سبل الهرب وما انت عن ذلك بمسؤول . لقد عمّرت سلامك كما يفعل النمل الابيض بأن أعمَيتَ كل المنافذ المؤدية الى النور . كوّمت نفسك ودحرجتها كالكرة في سلامتك البورجوازية، في أنماط حياتك اليومية، في الطقوس الخانقة لحياتك الريفية ، انك اعليت ذلك الحاجز المتواضع في وجه الرياح والأمواج والنجوم . انت لا تريد ان تقلق نفسك يومياً بالمعضلات الكبرى ، وقد لقيت ما يكفيك من العناء حتى نسيت ظرفك الانساني ، واذا انت لست ساكن كوكب تائه ، واذا انت لا تطرح على نفسك اسئلة لا جواب عنها : انك مدنيي من « طولوز » . ما من احد اخذ بيدك لما كان ذلك ممكناً . وان الطين الذي جبلت منه قد جفّ ، لا ، ولن يستطيع احد بعد اليوم ان يوقظ الموسيقيّ الهاجع ، او الشاعر ، او الفلكي الذين ربما كان في البداية يحلّون فيك .

ولا أعود اتشكى من زخات المطر . ان سحر مهنتي يفتح لي عالماً ، سأجابه فيه ، قبل مضي ساعتين ، التنانين السوداء ، والقنن التي تتوجها ذؤابات البروق الزرقاء، عالماً اذا ادلهم علي الليل فيه قرأت طريقي في النجوم.

وهكذا جرى تعميدنا المهني ، وبدأنا رحلاتنا . هذه الرحلات كانت على الاغلب من غير قصص . كنا نهبط بسلام ، مثل غواصين محترفين ، في اعماق مضمارنا. لقد استكشف اليوم جيداً. وليس للطيار والميكانيكي وموظف اللاسلكي ان يواجهوا مغامرة وانما يغلقون على انفسهم ابواب مختبر . يصدعون بأوامر تصدر عن ذبذبة عقارب من غير ان يعنوا بتعاقب المشاهد في الارض . وفي خارج الطائرة تغمر الظلمات الجبال ولكنها لم تعد جبالاً . انها قوى غير منظورة يجب ان نحسب مقدار الاقتراب منها . ويجلس موظف اللاسلكي ، في تعقل ، تحت ضوء المصباح ، يقيّد ارقاماً . والميكانيكي يؤشر على الخريطة،

ويصحح ربان الطائرة طريقه كلما ابتعدت الجبـال ، وكلما ظهرت الذرى امامه بينما يريدها هو عن يسار. كل هذا في صمت التعبئة العسكرية وسريتها.
واما اللاسلكيون الساهرون على الارض فانهم يأخذون دفاترهم في رزانة وتعقل ، في الثانية ذاتها ، إملاء رفيقهم : « منتصف الليل واربعون دقيقة . الطريق في ٢٣٠ . كل شيء على ما يرام في الطائرة » .

هكذا يسافر اليوم فريق الطائرة . لم يعد يحس أنه يتحرك . انه بعيـد جداً ، بُعد الليل في البحر ، عن كل مَعْلم . ولكن المحركات تملأ هـــذه الغرفة المضاءة برعشة تغير من مادتها . ولكن الساعة تدور . ولكن تستمر في هذه اللوحات ، في المصابيح - اللاسلكي ، في هـذه العقارب كيمياء غير مرئية كاملة . وثانية ثانية ، تمضي هذه الايماءات الخفية ، هـــذه الكلمات المخنوقة ، هذا الانتباه ، في التهيئة للمعجزة . وما ان تدق الساعة حتى يكون في وسع الطيار يقيناً ان يلصق جبهته على الزجاج . الذهب يولد من العدم : انه يشعشع في نيران الميناء .

ومع ذلك فقد عرفنا جميعنا الرحلات اذ احسسنا ، فجـأة وعلى ضوء وجهة نظر شخصية ، أننا ونحن على بعد ساعتين من الميناء بعيدون بعداً قد لا تشعر بمثله لو أننا كنا في الهند ، بعداً لا امل لنا معه في عودة .

وهكذا لما اجاز مرموز الاطلسي الجنوبي لاول مرة في طائرة مائيـة ، دنا مع انعدام النهار من منطقة «بوت-أو-نوار». رأى امامه اذيال عاصفة ، يلشدّ بعضها الى بعض ، تتجمع دقيقة بعد دقيقـة كما ينظر الانسان الى جدار يشيّد ، ثم تنسدل سدول الليل على هذه الاعدادات كلها فتخفيها . ولما مرق بعد ساعة تحت الغيوم وجد نفسه في مملكة مسحورة .
كانت عمد بحرية تنتصب هنالك محتشدة ، لا حراك فيها في الظاهر كأنه عمد هيكل سوداء . كانت تحمل في نهاياتها المكورة ، القبة المعتمة الواطئـة للزوبعة ، ولكن ، من خلال مِزَق هذه القبة ، كانت تتساقط شراريب من

نور ، والقمر بدراً يبزغ بين العمد ، على بلاطات البحر الباردة. وتابع مرموز طريقه بين هذه الخرائب غير المأهولة ، منقضّاً من فتحة للضوء الى أخرى ، حائماً حول تلك العمد العملاقة ، حيث لا بد وأن يكون لارتفاع الامواج هدير وإرعاد ، سائراً اربع ساعات ، مع مساقط ضوء القمر تلك ، نحو مخرج الهيكل . وكان هذاك المشهد على قدر من الروع وشدة الوطأة حتى ان مرموز ، لما أجاز منطقة البوت – او – نوار انتبه الى ان الخوف لم يعرف الى قلبه من سبيل .

واذكر ايضاً احدى تلك الساعات التي يعبر المرء فيها منفسحات العالم الواقعي : كانت التنبؤات الجوية التي تبعث بها الموانىء الصحراوية خاطئة طوال تلك الليلة ، وقد خدعتنا انا واللاسلكي « نيري » خداعاً خطيراً . فلما رأيت الماء يلمع في قاع شق في الضباب انعطفت بغتة في اتجاه الشاطىء ، لاننا لم يكن في وسعنا ان نعرف منذ كم من الوقت ونحن نغوص على هذا النحو صوب البحر العميق .

لم نعد واثقين من اننا سنصل الى الشاطىء ، لان الوقود قد ينفذ. ولكن حتى ولو بلغنا الشاطىء وجب علينا العثور على الميناء . بيد ان القمر كان ينحدر الى مغيب ، ونحن من غير معلومات زاوية وقد اصابنا الصمم وكنّا نفقد البصر رويداً رويداً . وانتهى القمر الى مغيب ، مثل جمرة شاحبة في ضباب ابيض اشبه بمقعد من الثلج . واخذت السماء فوقنا تتلبد بالغيوم . وكان علينا من الآن ان نمخر عباب الجو بين هذه الغيوم والضباب ، في عالم افرغ من نور وكل مادة .

وكانت الموانىء التي تجاوبنا تمتنع عن تزويدنا بمعلومات عن انفسنا : « لا معلومات عن مكانكم ... لا معلومات ... » ذلك لان صوتنا كان يأتيهم من كل مكان ومن لا مكان .

بغتة ، وكنا الى يأس ، سقط القناع عن نقطة لامعة على الافق ، عن يسار . وغلبني فرح هدار ، وانحنى « نيري » عليّ وسمعته يغني ! هذا لا

يمكن ان يكون إلا الميناء ، هـــذا لا يمكن ان يكون إلا فناره ، لان «الصحراء» في الليل تنطفىء كلها وتستحيل الى ارض موات . في هذه الاثناء التمع الضوء قليلاً ثم انطفأ . لقــد يممنا طائرتنا نحو نجم ، منظور وهو في مغيبه ، بعض دقائق وحسب ، بين طبقة الضباب والغيوم .

حينئذ رأينا اضواءً اخرى ترتفع ، فطفقنا نوجه الطائرة اليها واحداً بعد واحد ، يحثنا مأمل اصم ؛ ولما استمر الضوء رحنا نجرب تجربة الحيــاة . اصدر « نيري » امره الى ميناء « سينيروس » : « امامنا ضوء . اطفئوا فناركم واشعلوه ثلاث مرات » . فأطفأ « سينيروس » فناره واشعله ولكن الضوء استمر يراقبنا ، لا يطرف له جفن ، انه نجم لا يخبو .

وعلى الرغم من ان الوقود كان ينفد مضينا نعض على السنارات الذهبية . كل مرة ، كان يخيل الينا كل مرة اننــا امام ضوء الفنار الحقيقي ، أننا نتجه الى ميناء الحياة ، ثم نرى ان علينا ان نغير ... النجم !

بعد هذا احسسنا اننا ضائعان في الفضاء بين الكواكب ، بين قبة كوكب لا سبيل الى بلوغها ، بحثاً عن الكوكب الحقيقي الوحيد ، كوكبنا ، الوحيد الذي يضم مشاهدنا الاثيرة المألوفة ، منازلنا ، محطات حناننا .

الكوكب الوحيــد الذي يضم .. سأصنف لكم الصورة التي ظهرت لي ، والتي ربما بدت لكم طفليــة . ولكننا في قلب الخطر نحتفظ بهموم الانسان ، وكنت ظمآن ، وكنت جوعان . فاذا عثرنا على « سينيروس » نتابع رحلتنا بعد ان نملأ خزاناتنا وقوداً ونهبط في الدار البيضاء ، في برد الفجر . ينتهي العمل ! ننزل ، « نيري » وانا ، الى المدينة . نجد مع الفجر مقاهي صغيرة قد فتحت ابوابها .. ونجلس ، «نيري» وانا ، الى منضدة ، آمنين ، ضاحكين من ليلتنا الماضية ، امام الكعكات الساخنة والقهوة بالحليب . نتقبل ، «نيري» وانا هذه الهدية الصباحية من هدايا الحياة . القروية العجوز كذلك لا تتصل بربها إلا عن طريق صورة ملونة ، مدالية ساذجة ، مسبحة : اذا شئت ان نصغي اليك فكلمنا بكلام بسيط . وهكذا فقد تلملمت بهجة الحيــاة عندي

في هذه الرشفة الاولى المعطرة المحرقة ، في هذا المزيج من حليب وقهوة وقمح، الذي يصلني بالمراعي الهادئة ، والنباتات الغريبة ومواسم الحصاد ، الذي يصلني بالارض كلها . ليس بين هذا الحشد من النجوم إلا واحد قادر على ان يؤلف ذلك الكوكب العَبِق لوجبة الفجر ويضعه في متناولنا .

ولكن كانت المسافات الشاسعة تتراكم بين سفينتنا وهذه الأرض المأهولة . ثروات العالم كلها تقطن في ذرة غبار تائهة بين المجرات . والفلكي « نيري » ، الذي يبحث للتعرف اليها ، كان لا يزال يتضرع الى النجوم .

فجأة دحمت قبضته كتفي . وعلى الورقة التي جاءتني بها هذه الحركة قرأت : « كل شيء على ما يرام . انا اتلقى رسالة بديعة .. » وانتظرت واجف القلب ، ان ينهي الى الخمس الكلمات أو الست التي ستنقذنا . واخيراً تلقيت هذه الهبة السماوية .

كانت مرسلة من الدار البيضاء التي غادرناها العشية مع هبوط الليل . وقد تأخر ارسالها في مركز الارسال ، وها هي ذي تصلنا على حين غرة ، ونحن على بعد الفي كيلومتر ، ضائعان في البحر ، بين الغيوم والضباب . وكانت الرسالة صادرة عن ممثل الدولة في ميناء الدار البيضاء الجوي . وقرأت : « ايها السيد « دي سانت اكزوبيري » ، أراني مضطراً الى طلب معاقبتك من باريس ، فقد كنت تنعطف وانت تغادر الدار البيضاء على ارتفاع قريب جداً من مرائب الطائرات » . كان صحيحاً أني حلقت على ارتفاع قريب جداً من المرائب . كان صحيحاً ان هذا الانسان كان يمارس مهنته حين يغضب . ولعلي كان في وسعي ان أتلقى تأنيبه في مكتب ميناء جوي وانا مذعن مستسلم . ولكنه يواصلنا هناك ، حيث ليس له ان يفعل . انه يدوّي بين هذه النجوم المفرطة النّدرة ، فوق هذا السرير من الضباب ، في طعم البحر المنذر هذا ، وكنا نقبض على أعنة مصائرنا ، ومصائر البريد ومصائر سفينتنا ، وكنا نلعق الصبر في سبيل ان نحيا ، وهذا الانسان يصب

موجدته الصغيرة علينا . ولكننا كنا ابعــد ما نكون عن الغضب . كنا نحس ، « نيري » وانا ، بجذل شاسع مفاجىء ؛ ههنا ، كنـا نحن السادة ، وانه هو الذي جعلنا نكتشف ذلك . اذن فهذا الرقيب لم يرَ على أكامنا أننا ترفعنا الى نقباء ؟ كان يزعجنا عن حلمنـــا ، إذ كنا لم نضطرب بين الدبّ الاكبر والسهم والقوس والرامي ، اذ لم يكن لنـا من شغل شاغل إلا تلك الخيانة التي خاننا اياها القمر . .

ان الواجب الضروري ، الواجب الوحيد لهـذا الكوكب الذي يتظاهر فيه هذا الرجل ، كان في تزويده ايانا بالأرقام المضبوطة من اجـل حساباتنا بين النجوم . ولقد كانت خاطئة . واما فيما خلا ذلك ، فليس لكوكبنا ، موقتاً ، إلا ان يلزم الصمت . وكتب لي « نيري » : « عوضـاً عن التلهي بالحماقات لو أنهم يوصلونا الى مكان ما . . » و « هم » هـذه كانت توجز عنده شعوب الكرة الارضية كلها ، بمجالسهم النيابية ، بمجالس شيوخهم، بحرياتهم، بجيوشهم وأباطرتهم . كنا ، بعد اعادة قراءة رسالة ذلك المجنون ، نتجـه نحو عطارد .

وانقذتنا أغرب الصدف : أزفت الساعة التي نحرنا فيها الأمل في الوصول الى « سينيروس » ، واتجهنـا رأساً صوب الشاطىء ، وقررت ان احافظ على هذا الاتجاه حتى نفاد الوقود . وكنت في ذلك أدّخر بعض الامـل في ألا أهوي في البحر . كانت فناراتي الخداعة قد اجتذبتني ، لسوء الحظ ، الى حيث لا يعــلم إلا الله . ولسوء الحظ ايضاً كان الضباب الصفيق ، الذي سيضطرنا في احسن الحالات الى الغوص في قلب الليل ، يجعل الامل واهياً في ان نبلغ الأرض من غير كارثة . ولكن لم يكن لي ان اختار .

كان الموقف واضحاً وضوحاً جعلني أهزُّ كتفيَّ مكتئباً حينما زلـق لي « نيري » رسالة لو أنها وصلتنا قبل ساعة لأنقذتنا : « سينيروس يعتزم ان يقيل عثرتنا . سينيروس يبيّن : مائتـا وستة عشر مريب . . » لم يكن

سينيروس مختبئاً في اطواء الظلمات . سينيروس يكشف عن انه هنا ، في المتناول ، عن يميننا . نعم ، ولكن على أي بعد ؟ دار بين « نيري » وبيني حديث . الرسالة جاءت متأخرة جداً . كنا متفقين على ذلك . فاذا طاردنا سينيروس غامرنا بتضييع الشاطىء وأجاب نيري : « ليس لدينا من الوقود إلا ما يكفي لساعة طيران . سنظل متجهين الى الثلاثة والتسعين » .

في هذه الاثناء كانت الموانىء الجوية تستيقظ واحدة بعد واحدة. واختلط بحديثنا اصوات من أغادير ، من الدار البيضاء ، من دكار . لقد أخطرت أجهزة اللاسلكي في كل من هذه المدن الموانىء الجوية ، واذا هي تهرع فتحتف بنا كأنها حول سرير مريض . حرارة لا فائدة منها ، ولكنها حرارة مع ذلك . نصائح عقيمة . ولكنها شديدة الحنان !

بغتة برزت طولوز ، طولوز ، رأس الخط ، الضائعة هنالك على بعد اربعة آلاف كيلومتر . طولوز تتربع ، مرة واحدة ، بيننا دونما مقدمة : أليست الطائرة التي تقودونها هي الـ ف .. (نسيت الترقيم) . نعم - اذن معكم وقود يكفيكم ساعتين أخريين . خزان هذه الطائرة ليس من الطراز الشائع . توجهوا الى سينيروس » .

*

وهكذا ان الضرورات التي تفرضها مهنة ما تحّول العالم وتُغنيه . وطيار الخط في غير حاجة ابداً لليلة مثل هذه حتى يتسنى له ان يكتشف معنى جديداً للمشاهد القديمة . فالمشهد الرتيب الذي يُتعبُ المسافر ليس كذلك عند سدنة الطائرة . وهذه الكتلة الغيمية التي تسدُّ الافق تكف عن ان تبدو لأعينهم تزييناً : انها تعني عضلاتهم وتطرح عليهم مشكلات . فهم يحسبون حسابها ، يقيسونها ، تربطهم بها لغة حقيقية. ها هي ذي قمة لا تزال بعيدة : أي وجوهها ستبديه لنا ! انها في ضوء القمر معلم حسن . ولكن اذا كان الطيار يطير على العمياء ، ويصحح انحرافه في صعوبة ، ويشك في

وضعه ، فان القمة تستحيل الى متفجرة ، مثلما يفسد لغـم غائص ، يتسكع على هوى التيارات ، البحرَ كله .

وهكذا فان المحيطات ايضـاً تختلف وتتنوع . والمسافرون لا يبصرون العاصفة لان الأمواج اذا نظر اليها الانسان من شاهق لا يرى لها اي نتوء ، وحزم الزبد تبدو ثابتة لا حركة فيها . السعف البيضاء الكبيرة وحدها تنبسط وقد ظهرت عروفها وزبدهـا في نوع من الجليد . ولكن ملاحو الطائرة هم الذين يحكمون ان اي هبوط محظور هنا. ان هذه السعف عند هؤلاء الملاحين أشبه ما تكون بأزاهير كبيرة سامة .

وحتى لو كانت الرحلة سعيدة فان الملاح ، الذي يمخر الجو في مكان ما من حصته على الخط ، لا يحضر مشهداً بسيطاً واحـداً . هذه الالوان للأرض وللسماء ، هذه الرسوم التي تخلفها الريح على البحر ، هذه السحب التي يذهبها الغسق ، لا يرمقها الطيـــار ابداً وإنما يتأملها . ومثلما يتفقد الفلاح ارضه ويستشف ، من الف اشارة ، زحف الربيع ، نذير السقيع ، بشائر المطر ، فان الطيار المحترف هو ايضاً يحل الغازاً للثلج ، الغازاً للضباب ، الغازاً لليل المنيّ . ان الآلة ، التي يُخيل بادىء الامر انها تبعده عن هـــذا كله ، انما تخضعه ، بقوة أشد ، للمشكلات الطبيعية الكبرى. هذا ، الطيار، وحيداً في وسط المحكمة الشاسعة التي عقدتها سماء عاصفة ، تنازعه بريـده آلهات من العناصر ثلاث وهي الجبل والبحر والعاصفة .

الفصل الثاني

الرفـاق

١

بضعة رفاق ، من بينهم «مرموز» ، انشأوا الخط الجوي بين الدار البيضاء ودكار عبر الصحراء المتمردة . ولم تكن محركات تلك الايام موفورة المقاومة، اذ ان عطلاً طرأ على طائرة مرموز اوقعه بين يدي الموريتانيين الذين ترددوا في ذبحه فأبقوا عليه اسيراً خمسة عشر يوماً ثم باعوه . وعاد « مرموز » ينقل البريد فوق المناطق ذاتها .

وحينا افتتح خط امريكا كلف «مرموز» ، وهو دائماً في الطليعة ، دراسة الشطر الواقع بين بيونس آيرس وسانتياغو ، يعني ان عليه ، بعـــد الجسر الممتد فوق الصحراء ، ان يشيد جسراً فوق الآند[1] . سلموه طائرة مصممة لتتحمل ارتفاعاً قدره خمسة آلاف ومائتا متر ، في حين ان ذرى الكورديير تشهق حتى سبعة آلاف متر. واقلع «مرموز» يبحث عن ممرات. لقد واجه ، بعد الكثبان ، الجبل ، واجه تلك الذرى التي تطلق في الريـــح العاصفة

---

(١) وتسمى كورديير الآند وهي سلسلة جبلية كبرى تشرف على الساحل الغربي من امريكا الجنوبية طولها ٧٠٠٠ كم ، أعلى ذراهـــا الآكونكاغا L'Aconcagua (٧٠١٠ م) وفي السلسلة براكين عديدة .

اوشحتها الثلجية ، واجه ذاك الشحوب الذي يعتري الاشياء قبيل العاصفة ، واجه تلك الامواج القاسية التي اذا لاقاها الطيـار بين سورين صخريين ، اضطرته الى خوض معركة بالخناجر ! وكان مرموز يخوض هبوات هذه المعارك من غير ان يعلم شيئاً عن خصمه ، من غير ان يعلم ما اذا كان سيخرج حيـاً من مثل هذه الاشتباكات . كان مرموز « يقيس » لاجل الآخرين .

ولما « قاس » كثيراً ألفى نفسه آخر الامر اسير الآند .

سقط ، هو وميكانيكيّه ، في مكان يرتفع اربعة آلاف متر ، على قنـة جوانبها عمودية كلها ، وجاهـدا طوال يومين في محاولات للافلات ، ثم انهما لعبا ورقتهما الاخيرة . ودفعا الطائرة نحو الفراغ وهمـا يتزلزلان زلزالاً شديداً على ارض غير منتظمة حتى بلغا الهاوية ورميا نفسهما فيها . واكتسبت الطائرة في سقطتها ما يكفي من السرعة لكي تلبي الاوامر من جديد . ويمم مرموز بها احدى القمم ، حتى اذا بلغها ، وتعطلت الطائرة بعد سبع دقائق من الطيران ، رأى المياه التي تتدفق من الشقوق التي احدثها الصقيع اثناء الليل. ههنا عثر على السهل التشيلي ، تحته ، كأنه ارض الميعاد .

وفي اليوم التالي عاود التجربة .

لما تم استكشاف الآند ، وتحسنت تقنية الاسفار فوقهـا ، عهد مرموز بهذا الشطر من الخط الى رفيقه « غيوميه » وراح يستكشف الليل .

لم تكن إضاءة محطاتنا الجوية قـد انجزت ، كانوا يصفون ، على مهبط الوصول ، في الليل الدامس ، ثلاثة مصابيح هزيلة تضاء بالنفط .

وأجاز مرموز العقبات وفتح الطريق .

وحينما روّض الليل جرب المحيط ، ومنذ ١٩٣١ نقل البريد من طولوز الى بونس آيرس في اربعة ايام لاول مرة . وبينما مرموز في طريق العودة ، في قلب المحيط الاطلسي الجنوبي ، فوق بحر هائج ، اصاب جهاز الزيت عطل طارىء . وانقذته باخرة ، هو وبريده وملاحيه .

وهكذا فقد عبّد مرموز الرمال والجبل والليل والبحر . سقط اكثر من مرة في الرمال ، في الليل ، في البحر . وكان لا يعود إلا ليجدد المحاولة.

واخيراً ، بعد اثنتي عشرة سنة من العمل ، بينما كان يطير مرة أخرى فوق الاطلسي الجنوبي بعث رسالة مختصرة تقول انه بسبيل قطع المحرك الخلفي الأيمن عن الطائرة . ثم ساد الصمت .

لم يبدُ النبأ مقلقاً . ومع ذلك ، بعد عشر دقائــق من الصمت ، بدأت مراكز الخط اللاسلكية كافة ، من باريس الى بونس آيرس سهرها في القلق والاشفاق . ذلك انه اذا لم يكن للعشر دقائق معنى في الحياة اليومية فان دلالتها في الطيران البريدي فادحة قاصمة . في قلب هــذا الزمن الميت يكمن حادث لا يزال مجهولاً ؛ تافه او جسيم ولكنه منذ الآن واقع . القــدر اصدر حكمه ، حكماً لا نقض له : يدٌ من حديد قادت ملاحين الى هبوط في البحر لا خطر فيه او الى تحطم . ولكن الحكم لما يبلغ بعد لأولئك الذين ينتظرونه.

من منا لم يعرف مثل هذه الآمال التي تزداد رهافة وشفافية ، هـــذا الصمت الذي يزداد سوءاً دقيقة بعد دقيقة مثل مرض عضال ؟ كنا نأمل ، والساعات تمر ، وشيئاً فشيئاً ينقضي الليل . كان علينا ان نفهم ان رفاقنا لن يعودوا ، انهم يرقدون في ذلك الاطلسي الجنوبي الذي طالما زرعوا سماءه . لا بد ان مرموز قد تمترس وراء طرفته ، مثل حصّاد أحسن ربط حزمته من السنابل فرقد في حقله .

عندما يقضي أحد الرفاق على هذا النحو يبدو موته حادثاً غير غريب على أعراف المهنة . ولعله يحز في النفس بادىء الأمر أقــل من أية ميتة اخرى . لا جَـرَم انه ابتعد وهو يتنقــل تنقله الاخير بين الموانىء ، ولكن وجوده لا يوحشنا ، في الصميم ، مثلما يوحشنا فقدان الخبز .

والحقيقة ان من عاداتنا ان ننتظر اللقاء طويلاً. لأن رفاق الخط متناثرون في العالم كله من باريس الى سانتياغو الى الشيلي منعزلين بعض الشيء ، مثل

ديدبانات لا يكلم بعضهم بعضاً . ومصادفات الرحلات هي التي تجمع ، هنا أو هناك ، اعضاء الأسرة المهنية الكبرى المتباعدين ، واذا هم يستأنفون ، وهم حول المائدة ذات مساء ، في الدار البيضاء او في بونس آيرس ، وبعد سنوات من الصمت ، تلك الاحاديث التي سبق لها ان انقطعت ، ويعودون يعقدون انفسهم الى الذكريات القديمة ، ثم يرحلون من جديد . وهكذا فان الأرض فقراء غنية في آن ، غنية بهذه الحدائق الخفية ، المخبأة ، العسيرة سبل الوصول اليها ، ولكن مهنتنا مع ذلك تمضي بنا اليها ذات يوم . وقد تبعدنا الحياة عن الرفاق ، ولكنهم في مكان ما ، نحن لا نعلم كثيراً اين، صامتون او منسيون ، ولكن ما اكثر اخلاصهم ! واذا برزنا لهم هزونا من اكتافنا في هبّات جميلة من الفرح ! لا ريب في ان من عادتنا الانتصار ..

ولكننا ، رويداً رويداً ، نكتشف اننا لن نسمع ضحكة ذلك الرفيق الصافية من بعد ابداً ، نكتشف ان تلك الحديقة امست محرمة علينا الى الأبد . حينئذ يبدأ حدادنا الذي لا يمزقنا تمزيقاً ولكنه مرير بعض الشيء .

والواقع ألا شيء يُعزّيك عن الصاحب المفقود . انك لا تستطيع ان تخلق الرفاق القدامى كلما عنّ لك ذلك. ولا شيء يعدل كنز تلك الذكريات الموفورة المشتركة ، وتلك الساعات الحرجة التي عشناها معاً ، وتلك المخاصمات والمصالحات وتدفق القلب . هذه الصداقات لا يمكن ان يعيد الانسان بناءها . عبثاً يحاول ، مثل من يغرس سنديانة ثم يأمل ان يتفيأ ظلها بعد قليل .

هكذا الحياة . استغنينا بادىء الامر ، ثم قضينا سنوات ونحن نغرس ، ولكن لا تلبث ان تأتي سنوات أخرى واذا الزمن يهدم ما عملنا ويقتلع اخشابنا ، ويحرمنا الرفاق واحدٌ بعد الآخر ظلّهم الظليل، واذا حدادنا منذ الآن يمتزج به الأسف الخفيّ على اننا نشيخ .

هذا هو الدرس الذي علمنا اياه مرموز والآخرون . ان عظمة مهنة ما

ربما تكمن قبل كل شيء في توحيد الناس : ليس ثمة إلا حلية حقيقية واحدة هي حلية الوشائج الانسانية .

نحن ، اذ نعمل لثرواتنا المادية وحدهـا نبني سجننا بأنفسنا ، ونوصد الأبواب على وحدتنا وعلى الرماد الذي لا يزودك بشيء يستحق الحياة .

واذا أنا فتشت في جعبة ذكرياتي عن اولئك الذين تركوا لي مذاقاً باقيـاً على الايام ، اذا أنا احصيت الساعات التي تستحق ان تحيا ، فاني اراها يقيناً تلك التي لا يستطيـع أيُّ كنز في الدنيا ان يزودني بمثلهـا . انك لا تقدر على ان تشتري صداقة انسان مثل مرموز ، صداقة خدينٍ ربطتنا اليه الى الابد غمرات خضناها معاً .

هذه الليلة من ليالي الطيران ونجومها التي لا تحصى ، هـــذا الصفاء ، وسلطانُ بضع الساعات تلك .. كل هذا لا يشترى بمال .

وذلك المشهد ، تلك الرؤية الجديدة للعالم بعد المرحلة الصعبة ، وهاتيك الاشجار والازاهر والنسوة والذكريات التي لونتها ، منـذ أمد يسير ، الحياة التي ردّت الينا مع الفجر،تلك الجوقة من الاشياء الصغيرة.. المال لا يشتريها.

لا ، ولا تلك الليلة التي عشناها في العراك والتي تعاودني الآن ذكراها .

كنا ملاحي ثلاث طائرات من « الآيروبوستال » وقد سقطنا مع المغيب على ساحل « ريو دو أورو » . هبط بادىء الامر رفيقي « ريغيل » على اثر انفصام في داخل الحركة في طائرته ؛ وهبط رفيـق آخر ، « بورغا » ، هو ايضـاً ، لانتشال ملاحي الطائرة الاولى ، ولكن خللاً غير خطير أرغمه على البقاء محله . واخيراً هبطت انا ، ولكن ما ان وصلت حتى خيّم الليـل . وقررنا ان ننقـــذ طائرة « بورغا » ، وان ننتظر النهار حتى يكون الاصلاح جيداً .

قبل عام من ذلك تعطل رفيقنا « غور » و « إيرابل » في ذلك المكان ذاته فذبحهما رجال القبائل الثائرة . وكنا ، يومئذٍ ، نعلم ان قبيلة غازية

عددها ثلاثمائة بندقية كانت تخيّم في مكان ما من « بورجادور » . وقد كان هبوط هذه الطائرات الثلاث ، الممكن رؤيته من البعيد ، قد لفت نظرهم . وبدأ السهر سهراً ربما كان الاخير في حياتنا .

اذن فنحن هنا طوال الليل . وأنزلنا من مستودعات الطائرات خمسة صناديق او ستة وافرغناها ونضّدناها على شكل دائرة ، واشعلنا داخل كل واحد ، كما في كوخ ديدبان خشبي ، شمعة هزيلة لا تكاد تصمد للريح . وهكذا ، في قلب الصحراء ، على قشرة كوكبنا العارية ، في عزلة تشبه الاعوام الاولى من مولد البشر ، بنينا قرية انسانية .

وتجمعنا ليلتنا على ساحة قريتنا الواسعة تلك ، على هذا المثوى الرملي الذي تسكب صناديقنا عليها ضياء مرتعشاً ، وانتظرنا . كنا ننتظر الفجر الذي قد ينقذنا ، او الغاربة . ولست ادري اي شيء أضفى على تلك الليلة مذاق ليلة عيد الميلاد . كنا نتطارح الذكريات ، ونتمازح ، ونتبادل الاغاني .

كنا نصطلي تلك الحرارة الخفيفة التي يستشعرها الانسان في قلب حفلة حسنة الاعداد . ومع ذلك ، فقد كنا فقراء ، لا حد لفقرنا . الريح ، الرمال ، النجوم . زاد قاس حتى لازهد الرهبان . ولكن ، على هذا البساط السيء الاضاءة ، كان ستة رجال او سبعة ، لم يعودوا يملكون شيئاً في الدنيا إلا ذكرياتهم ، يتقاسمون كنوزاً غير منظورة .

وكنا قد التقينا آخر الامر . وإنا لنسير طويلاً جنباً الى جنب وقد اوصدت علينا جدران صمتنا ذاته ، او لعلنا نتجاذب كلمات لا تنقل اي معنى . ولكن ما إن تدق ساعة الخطر حتى يشد بعضنا بعضاً ونكتشف اننا ننتمي الى جماعة واحدة . ونزداد شسوعاً بما نكتشف من وجدانات الآخرين، ونترامق في ابتسامة واسعة . وإنا لنشبه ذلك السجين الذي اطلق سراحه فاذا امتداد البحر يبهره ويخلب لبه .

٢

أي « غيوميه » ، سأقول بضع كلمات عنك ولكنني لن اثقل عليك بالالحاح على شجاعتك وعلو قدرك في المهنة . واني لاستهدف وصف امر آخر اذ اود رواية اجمل مغامراتك .

هنالك مزية ليس لها اسم. قد نسميها «الجهامة» ولكن الكلمة لا ترضي . لأن هذه الصفة يمكن ان تقترن بأكثر المراح ابتساماً وبشاشة . انها المزية ذاتها التي للنجار يجالس قطعة الخشب مجالسة الند للند ، فيجبّسُها ، ويقيسها ولا يعاملها بخفة وانما يلملم ، وفق مطلب بعيد ، جميع فضائلها وخواصها .

أي غيوميه ، قرأت من قديم قصة يمجدون فيها مغامراتك ، ومنذ ذلك الحين اعتزمت ان اتصدى لتلك الصورة غير الامينة التي رسموها لك . ان القارىء يراك فيها تندفع اندفاعات غافروشية[1] ، كأن قوام الشجاعة هو الانحدار الى فكاهات اولاد المدارس ، في غمار افظع الاخطار وحين يكون الموت يقرع الأبواب . لم يكونوا يعرفونك يا « غيوميه » . انك لا تستشعر الحاجة ، قبل مواجهتك هذه الاخطار فعلاً ، للسخرية من خصومك والتهكم عليهم . فاذا جابهت إعصاراً رهيباً قلت : « هذا إعصار رهيب » . تتقبله وتقيسه .

وهأنذا يا غيوميه أدلي بشهادتي التي اغرفها من جعبة الذكريات .

كانت اخبارك قد انقطعت منذ خمسين ساعة ، في الشتاء ، في احدى المرات التي عبرت فيها الآند . وكنت قد عدت من اعماق الباتاغونيا[2] وانضممت الى الطيار «دولي» في ماندوزا[3] . كنا، هو وانا ، قد نبشنا، طوال

---

(١) غافروش ، احلى ابطال «البؤساء» لفكتور هوغو وهو يرمز الى الفتى الباريسي الذكي الشجاع الكريم .

(٢) مقاطعة في اميركا الجنوبية جنوبي الشيلي والارجنتين ، سكانها رعاة رحل .

(٣) مدينة في الارجنتين .

خمس ساعات ، في هذه الكتل من الجبـال من غير ان نعثر على شيء . ولم تكن طائرتانا كافيتين . خيل الينا ان مائة سرب ، لو راحت تمخر الاجواز طوال مائة عـــام لما فرغت من استكشاف هذه الكتلة الشاسعة التي تسمق أعرافها سبعة آلاف متر. فقدنا كل امل . ان المهربين ،وهم قطاع طرق قادرون على ان يرتكبوا جريمة من أجل خمسة فرنكات، كانوا يرفضون المغامرة بتسيير قوافل اغاثة في هاتيك الجبال ويقولون : « قد نفقد ثمة حياتنا ، لأن الآند في الشتاء لا تعيد انساناً اخذته » . وحينما هبطنا في سانتياغو ، «دولي» وانا ، نصحنا الضباط الشيليون هم ايضـــاً ان نوقف استكشافاتنا . قالوا : انه الشتاء . ورفيقكم ، حتى لو نجا بعد السقوط لا يمكن ان يتحمل الليـل . الليل ، هناك في الاعالي ، اذا مرّ على انسان أحاله الى جليد » . ولما عدت كرّة اخرى انزلق بين أسوار الآند وركائزها العملاقة كان يخيّل اليّ أني لم اعد ابحث عنك وانما أقضي الليل ساهراً قرب جثمانك ، صامتـــاً ، في كاتدرائية ثلجية .

واخيراً خلال اليوم السابع ، بينما كنت اتغدى بين تحليقين في احـد مطاعم مندوزا دفع رجل الباب وصرخ ، وي ، امر يسير :

– غيوميه .. حي !

واذا كل الغرباء الذين كانوا هنالك يتعانقون .

بعد عشر دقائق أقلعتُ وعلى متن طائرتي ميكانيكيان ، هما « لوفيفر » و«آبري» وبعد اربعين دقيقة كنت قد هبطت على احدى الطرق لاني تعرفت، عما لست ادري من سمات ، العربـة التي كانت تحملك الى ما لست ادري من ناحية سان رفائيل . وكان لقاء جميلا . طفقنا نبكي جميعنا ، ونعتصرك بين اذرعتنا ، حياً ، قد بعثت ، صانعـاً معجزتك بذاتك . حينئذٍ افصحت ، وكانت هذه أول جملة مفهومة تنطقها ، عن زهو انساني آسر إذ قلت : « ان ما فعلته ، أقسم لك ، لا يستطيع أي حيوان ان يفعله أبداً » .

فيما بعد رويت لنا الحادث .

إعصار ركم خمسة امتار من الثلج، في اربع وعشرين ساعة، على منحدرات الآند الشيلية ، فسدّ كل فضاء وحمل الاميركان من شركة « بان - اير » على النكوص على اعقابهم . وأما انت فتقلع بحثاً عن مِزقة في السماء ، واذا انت تكتشف ذلك الشرك الى الجنوب قليلاً ، رابضاً على ارتفـاع ستة آلاف وخمسمائة متر ، مهيمناً على الغيوم التي لم تكن ترتفع اكثر من ستة آلاف ، الغيوم التي تنبثق منها الذرى الشاهقة وحدها،وتوجه طائرتك الى الارجنتين.

التيارات الهابطة تثير احياناً في نفوس الطيارين احساساً غريباً بالضيق والتوعك . المحرك يدور دوراناً لا شبه فيه ولكنك تغوص . وانك لترفـع مقدمة الطائرة كي تحافظ على ارتفاعك ولكن الطائرة تفقد سرعتهـا وتغدو رخوة : انت تغوص دائماً . وتستسلم وانت خائف من ان تكون قد رفعت المقدمة اكثر مما ينبغي ، وتدع نفسك تجنح يمنـة او يسرة مسنداً ظهرك الى القمة الملائمة ، بتلك التي تتلقى الرياح مثـل الرفاس ولكنك تغوص ايضاً . ويخيّل اليك ان السماء كلها هي التي تهبط ، وتحس انك قد وقعت في نوع من الشرك الكوني . وقد عز العاصم والملاذ . وعبثاً ما تحاول ان تقفل راجعـاً لعلك تبلغ المناطق التي كان الهواء فيها يدعمك مكيناً مليئاً مثـل ركيزة . ولكن لم تبق لك ركيزة قط . كل شيء يتحلل ، وانت تنزلـق في تصدع وخراب كوني نحو الغيمة التي تصعد في رخاوة ، ترتفع حتى تبلغك وتمتصك.

وكنت تقول لنا : « اوشكت ان أقع في الفخ ولكني لم اكن قد اقتنعت بعد . الانسان يصادف تيارات هابطة فوق الغيوم تبدو ثابتـة لسبب بسيط هو انها تتكون مجدداً الى ما لا نهاية على ذلك الارتفـاع نفسه . كل شيء غريب في الذرى الشامخة ...

ويا لها غيوماً !...

« ولم أكد اقع في الفخ حتى تركت القيادة وتشبثت بمقعدي حتى لا انقذف

الى الخارج . كانت الزعازع من القسوة بحيث كانت الاحزمـــة تجرحني في كتفي وتكاد تنقطع . وزاد الطين بلة ان الجمد حرمني اطلاقـاً من اي افق يصلح لهدايتي،فتدحرجت كالقبعة من ستة آلاف الى ثلاثة آلاف وخمسة امتار.

« على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسة تراءت لي كتلة سوداء ، أفقيـــة ، اتاحت لي تقويم الطائرة . كانت هذه غديراً اعرفه : « اللاغونا ديامانت » . وكنت اعرف أنها تقع في قاع صخري ، أحد جوانبه هو البركان « ميبو » الذي يرتفع ستة آلاف وتسعمائة متر . وعلى الرغم من أني تملصت من السحابة فان الضباب الثلجي الصفيق أعماني ، فلم أعد قادراً على مبارحة بحيرتي تلك من غير ان انحطم على احد جوانب القمـع . ودرت حول البحيرة ، على ارتفاع ثلاثين متراً الى ان نفذ الوقود . وبعد ساعتين من هذه المداورة هبطت فانقلبت بي الطائرة ، فلما تخلصت منها طرحتني العاصفة جليداً ! وقفت على قدمي فطرحتني من جديد . واضطررت الى الانزلاق تحت مؤخرة الطائرة ، وحفر ملجأ في الثلج . غلّفت نفسي فيه بالاكياس البريدية وانتظرت طوال اربعين ساعة .

« بعد هذا هدأت ثائرة العاصفة، وبدأت المسير. مشيت خمسة ايام واربع ليال » .

ولكن ماذا بقي منك ياغيوميه؟نعم نحن وجدناك ولكنمتحجراً، ولكن متيبساً،ولكن منكمشاً متضائلاً مثل عجوز كبيرة!في المساء نفسه مضيت بك الى مندوزا حيث انسابت عليك الملاءات البيضاء انسياب البلسم . ولكنها لم تكن لتشفيك.كنت تضيق بذلك الجسد المحطم،تقلبه يمنة ويسرة من غير ان توفق الى اسكانه مملكة النـوم . لم يكن جسدك قادراً على نسيان الصخور او الثلوج. كنت تبحث عنها. وكنت اراقب وجهك الأسود المتورم مثل ثمرة مفرطة النضج اصابتها الضربات.كنت قبيحاً جداً،وشقياً اذ فقدتاداتيْ عملك الجميلتين : يديك اللتين تجمدتا ، وحينما كنت تحاول الجلوس على حافة سريرك

لتتنفس كانت رجلاك المتجمدتان تتدليان مثل ثقلين ميتين . حتى رحلتك لم تكن انهيتها ، كنت لا تزال تلهث، وحينما كنت تتقلب على الوسادة باحثاً عن السلام ، سرعان ما تروح قوافل من الصور لا تستطيع لها وقفاً ، قوافل تحمحم في الخفاء ، تتعاقب تحت جمجمتك . وانها لتتقاطر ، وتعاود انت عشرين مرة القتال مع الاعداء الذين يبعثون من رمادهم الخامد .

وكنت اسقيك مغلي الازهار :

– اشرب ايها الصديق القديم !

– اشد ما اثار عجبي .. انت تدري ..

ما كان اشبهك بلاكم منتصر ، ولكنه يحمل آثار الضربات القاصمة التي انهالت عليه ، حينما كنت تستعيد مغامرتك الغريبة ، وتنتشل نفسك منها قطعة قطعة . وكنت اشاهدك ، خلال قصتك الليلية ، سائراً من غير عكازات تزلج ، من غير جبال ، من غير مؤونة ، تتسلق شعاباً ترتفع اربعة آلاف وخمسمائة متر ، او متلمساً خطاك على طول أسوار عمودية ، ورجلاك تنزفان الدم ، وركبتاك ويداك ، في برد ينحدر حتى اربعين درجة . واذ فرغت شيئاً فشيئاً من دمك ، من قواك ، من رشدك ، رحت تتقدم في مثل عناد النملة ، تعود ادراجك كي تدور حول عقبة من العقبات ، تنهض بعد كل سقطة ، او تصعد مساقط سفوح لا تؤدي إلا الى هاوية ، من غير ان تمنح نفسك اية راحة ، لانك لو فعلت لما استطعت ان تنهض من سرير الثلج قط .

وهذا صحيح ، لانك ، كلما انزلقت وجب عليك ان تنتصب سريعاً حتى لا تستحيل الى حجر . كان البرد يحجرك ثانية بعد ثانية ، ولانك تنعمت ، بعد السقطة ، بدقيقة راحة زيادة عما ينبغي ، كان عليك ، اذا شئت ان تعود للنهوض ، ان تحرك عضلات ميتة .

وكنت تقاوم الاغراءات . قلت لي : « في الثلج يفقد الانسان كل غريزة

لحفظ النوع . وبعد يومين ، ثلاثــة ، اربعة ايام من السير لا يعود يتمنى غير الرقاد . ولقد كنت اتمناه . ولكنني كنت اقول لنفسي : امرأتي اذا آمنت بأني حيّ آمنت بأني امشي . الرفاق يؤمنون بأني امشي . انهم يثقون بي ، جميعهم . واكون قذراً اذا لم امش » .

وكنت تمشي ، وتقطع كل يوم، بطرف الموسى ، قطعة جديدة من خياطة حذائك حتى يتسع لقدميك اللتين تتجمدان وتتورمان كل حين .

وبحت لي بهذا السر الغريب :

« منذ اليوم الثاني انصرف همي كله الى منع نفسي عن التفكير . كنت اعاني آلاماً فظيعة ، وكانت حالي ميؤوساً منها . وكان عليَّ ، لكي تكون لي الشجاعة على السير ، ان اكفّ عن النظر في تلك الحال.من سوء الحظ ان سيطرتي على دماغي كانت سيئة واهنة ، كان يشتغل كأنه مولد كهربائي ، ولكني كنت لا ازال قادراً على ان اتخيَّر من الصور التي يجب ان يعمــل بها . كنت اسوقه الى فيلم ، الى كتاب . ويمرق الفيلم او الكتــاب فيّ مثل لمح البرق واذا انا أُعاد الى حالي الراهنــة ، ضربة لازب . حينئذ ارتمي وراء ذكريات اخرى ... »

ذات مرة انزلقت مع ذلك فأكببت على وجهك في الثلج ، وكففت عن النهوض . كنت تشبه ملاكماً افرغته ضربة قاصمة من كل ما يتلاطم فيه من تدفق واذا هو يسمع الثواني تسّاقط واحــــدة واحدة في كون غريب حتى تسقط العاشرة وما من مجيب .

« فعلتُ كل ما في وسعي ولم يعد لدي امــل ، فعلام المعاندة والاصرار على هذا العذاب؟ » وكان حسبك ان تغمض عينيك حتى يسود السلام العالم ، حتى تنمحي من الدنيا الصخور والجليد والثلوج . وما ان توصد هذه الاجفان المعجزة حتى تختفي الضربات والسقطات والعضلات الممزقــة والبرّد المحرق ووقر الحياة الذي يجب علينا ان نجرّه في مسيرنا كالثور ، والذي مــا ينفك

يغدو اكثر وطأة من عربة . وبدأت تتذوق طعم ذلك البرد الذي أمسى سماً فاقعاً ، برداً شبيهاً بالمورفين ، راح يملؤك نشوة وغيبوبة . وكانت حياتك تلوذ بقلبك ، تحتشد حوله . كان شيء حلو ، ثمين يتكوم في المركز من نفسك ، ويهجر وجدانك شيئاً فشيئاً المناطق النائية من جسدك ، هذه البهيمة التي طفحت عذاباً ، ويشارك في لامبالاة المرمر الذي كنت تستحيل اليه .

وساوسك ذاتها كانت تحور الى طمأنة . نداءاتنا لم تعد تبلغك ، او اذا شئت ، كانت تتحول الى نداءات حلم . وكنت تجيب هانئاً بسير في الحلم ، بخطوات واسعة هنية تفتح امامك ، من غير عناء ، كل هناءات السهول . ما كان اعظم اليسر الذي تلقاه اذ تنزلق في عالم بات عظيم الحنو عليك ! لقد قررت يا غيوميه ان تبخل علينا بعودتك .

وجاء الندم من مكان قصي في وجدانك . فجأة امتزج الحلم بتفاصيل محددة : « فكرت في امرأتي . وثيقة التأمين تحميها الفقر . نعم ، ولكن التأمين ... »

في حال اختفاء شخص يؤجل اعتباره ميتاً ، شرعياً ، اربع سنوات . هذا التفصيل بدا لك مدوياً ، ماحياً الصور الاخرى . وكنت منطرحاً على وجهك فوق منحدر ثلجي شديد . فاذا قدم الصيف انجرف جسدك مع هذا الطين نحو واحد من آلاف اخاديد الآند . كنت تعلم ذلك ، ولكنك كنت تعلم ايضاً ان صخرة تشرئب امامك على بعد خمسين متراً . « وفكرت : اذا انا نهضت فربما بلغتها . واذا انا أرحت جسمي عليها وجدوني عند قدوم الصيف » .

وما ان قمت حتى مشيت ليلتين وثلاثة ايام .

ولكنك لم تفكر قط في ان تمشي أبعد من ذلك .

« حزرت النهاية من أمارات كثيرة . هاك احداها . كنت مضطراً الى

التوقف كل ساعتين تقريباً لأشق حذائي اكثر قليلاً وافرك بالثلج قدمي اللتين كانتا تتورمان ، او على الاقل لادع قلبي يستريح . ولكن في الايام الاخيرة بدأت افقد الذاكرة . كنت امشي مدة طويلة ثم يضيء في نور : لقد نسيت شيئاً . اول مرة نسيت قفازاً ، وكان هذا امراً خطيراً في ذلك البرد ! كنت قد ركزته امامي ثم رحلت من غير ان آخذه . ثم نسيت ساعتي ، ثم سكيني ، ثم بوصلتي . كنت في كل محطة ازداد فقراً واملاقاً ...

« ان ما يُنقذك هو ان تخطو خطوة ، خطوة اخرى . واذا انت تخطو خطوتك الاولى ذاتها .. »

« ما فعلته ، اقسم لك ، لا يستطيع اي حيوان ان يفعله ابداً » . هذه الجملة التي لم أسمع أنبل منها ، هذه الجملة التي تضع الانسان في موضعه ، التي تشرفه ، التي تسلسل المراتب الحقيقية ، تعود الى ذاكرتي . وتنام أنت أخيراً ، يزول وجدانك ، ولكن من ذلك الجسد الممزق ، البالي ، المحترق سيولد وجدانك من جديد عندما تستيقظ ، ويسيطر على جسدك مرة أخرى. حينئذٍ يعود الجسد اكثر من اداة طيبة ، لا يعود الجسد اكثر من خادم . وهذا الادلال بالأداة الطيبة كنت لا تزال تحسن التعبير عنه أنت يا غيوميه :

« كنت بلا طعام ، أنت تفهم ، بعد ثلاثة أيام من السير ... لم يعد قلبي قوياً جداً .. إي نعم ! وكنتُ القدم على سفح عمودي معلقاً في الفضاء، أحفر حفراً أريح فيها قبضتي ، واذا قلبي يصاب بعطل . انه يتردد ، يعود الى الخفقان ، يخفق خفقاً نزقاً . وأحس أنه اذا تردد ثانية أكثر لنفضت يدي منه . لم اعد أتحرك ، ورحت أصغي الى ما في نفسي . ولا مرّة ، أتسمعني ؟ ولا مرة واحدة لم يحدث لي في الطائرة ان أحسستني معلقاً على هذا القدر من الحرص واللصوق بمحركي الذي تعلقته تلك الدقائق بقلبي . كنت أقول له : هيا بنا ، قليلاً من الجهد ! حاول ان تخفق أيضاً ... وكان قلباً من نوع جيد ! كان يتردد ثم ينطلق ابداً .. لو أنك تعلم كم أنا مزهوٌ بهذا القلب ! »

في تلك الغرفـة ، حيث كنت أسهر عليك ، استسلمت آخر الأمر الى نوم متقطع . ورحتُ أفكر : اذا كلمناه عن شجاعته لرفـع كتفيه ، ولكننا نخونه اذا نحن أشدنا بتواضعه . انه يقيناً بعيد من هذه الفضيلة النافلة. فهو لا يرفع كتفه إلا لحكمة . انه يعلم أن الناس عندمـــا تجتذبهم الأحداث الى دوامتها لا يعودون يخافونها . المجهول وحده هو الذي يثير رعب النـاس . ولكن ما إن يواجه احدٌ هذا المجهول حتى يكفَّ عن كونـه كذلك ، ولا سيا اذا هو تأمله بمثل ذلك الجِد الصافي . إن شجاعـة غيوميه هي ، قبل كل شيء ، نتيجة لاستقامته .

ولكن مزيته الحقيقية لا تقتصر على هذا وحده . ان عظمته في انه يحس نفسه مسؤولاً . مسؤول عن نفسه ، عن البريد وعن الرفاق الذين يأملون . بين يديه اتراحهم او افراحهم . مسؤول عما يُبنى من جديد ، هنالك ، عند الأحياء وعليه ان يشارك فيـه . مسؤول بعض الشيء عن مصير الناس ، في حدود عمله .

انه من أولئك الناس الشاسعين الذين يمدون ظلالهم على آفـاق شاسعة . وكونك انساناً يعني على وجه الدقـة ان تكون مسؤولاً . يعني أن تعرف الخجل أمام بؤس لا يبدو أنـه يتعلق بك ، ان تزهو بنصر كلّـل هامات الرفاق ، أن تحس وأنت تضع حجرك أنك تعمّـر العالم .

ويود بعض الناس أن يخلطوا مثل هؤلاء الرجال بمصارعي الثيران أو المغامرين ، ويمتدحون احتقارهم للموت . ولكني أهزأ باحتقار الموت . اذا لم تمتد جذوره الى مسؤولية يتقبلها الانسان فما هو إلا دليـــل فقر أو نزق شباب . وقد عرفت فتى صغيراً قـد انتحر . لست أدري أي لاعج غرامي دفعه الى ان يطلق ، في عناية مدهشة ، رصاصة في قلبه . ولا أعلم اي إغراء ادبي حمله على كسوة يديه بقفازين ابيضين ، ولكني اذكر أني أحسست امـام هذا العرض الحزين أحساساً لا بالنبالة ولكن بالبؤس . هكذا ، فوراء ذلك

الوجه اللطيف ، تحت جمجمة الانسان تلك لم يكن ثمة شيء ، لا شيء ، إلا صورة بنية صغيرة حمقاء مثلها مثل غيرها من الفتيات .

تجاه هذا المصير الهزيل رحت اذكر موتاً حقيقياً لانسان الرجل . موت بستاني كان يقول لي : « أتعلم ... كنت في بعض الأحيان أعرق وأنا احفر بالرفش . رئيتي تشد ساقي ، وأنا ألعن هذه العبودية . وأما الآن فأنا احب ان احفر ، أحفر في الأرض. الحفر يبدو لي جميلاً جداً ! انك حر جداً حينما تحفر ! وبعد ، من ذا الذي يشذب لي اشجاري من بعدي ؟ » كان يترك أرضاً مواتاً . كان يترك كوكباً مواتاً . كان الحب يشج بينه وبين كل أرض وكل شجرة على الارض . كان هو الجواد ، المعطاء ، السيد العظيم ! كان هو ، مثل غيوميه ، الرجل الجسور عندما يقارع الموت باسم « خليقته » هو .

الفصل الثالث

الطائرة

ما ضرّ اذا تصرمت أيام عملك يا غيوميه ولياليه في ضبطك المانومتر وموازنتك على الجيروسكوب ، والتسمع لأنفاس المحركات ، وعراك خمسة عشر طناً من المعدن : ان المشكلات التي تعترضك هي آخر الأمر مشكلات انسان ، مشكلات ترتفع بها ، مرة واحدة ، الى نبالة ابن الجبال . ومثل الشاعر ، تترشّف انت بشائر الفجر . ومن قاع هوة لياليك الصعبة كثيراً ما تمنيت ظهور هذه الباقة الشاحبة ، هذا الضياء الذي ينبجس ، في الشرق ، من الأراضي السوداء ، هذا الينبوع المعجز الذي ينفكُّ عنه الجليد ، امامك احياناً ، فيسيل وئيداً ويشفيك اذ انت تحسب نفسك ميتاً .

ان استخدام أداة جهد العالم في ابداعها وضبطها لم يجعل منك تقنياً جافاً . ويخيل اليّ ان اولئك الذين يبالغون في التخوف من منجزاتنا العلمية الباهرة انما يخلطون بين الغاية والوسيلة .. وكل من يناضل يحدوه امل المنافع المادية وحده لا يجني شيئاً يستحق الحياة . ولكن الآلة ليست غاية . الطائرة ليست غاية : انها أداة . أداة كالمحراث .

واذا حسبنا أن الآلة تتلف الانسان فلأننا ، ربما ، نحتاج الى قليل من الرجوع الى الوراء لنحكم على نتائج هذه التغيرات السريعة التي مرت علينا .

وما شأن المائة عام من تاريخ الآلة اذا هي قيست بالمائتي الف سنة من تاريخ الانسان؟ اننا لم نكد نحطّ رحالنا في هذا المشهد من مناجم ومحطات كهربائية. اننا لم نكد نسكن هذا المنزل الجديد الذي لما ننته من بنيانه بعد. كل شيء فيما حولنا قد تغير في سرعة عظيمة : العلاقات الانسانية ، ظروف العمل ، العادات . ان نفسيتنا ذاتها قد انقلبت في أسسها العميقة . ومفاهيم الفراق والغياب والبعد والعودة لم تعد تنطوي على الحقائق ذاتها وان كانت كلماتها ما برحت هي اياها. ونحن ، اذ نود ان نفهم عالم اليوم ، نستخدم كلاماً صنع من أجل عالم الامس . وحياة الماضي تبدو اكثر استجابة لطبيعتنا ، والسبب الوحيد هو انها اكثر استجابة لكلامنا .

ان كل تقدم يحدث يطردنا خطوة عن عاداتنا التي لم نحسن اكتسابها بعد. واننا حقاً لمهاجرون لما يشيدوا لهم وطناً بعد .

ونحن جميعاً بدؤ أحداث لا تزال لُعبنا الجديدة تخلب منا الألباب . وسباق الطائرات الذي نقوم به ليس له تعليل آخر . هذا يحلق أعلى من رفيقه وذاك يركض اسرع منه . ونحن ننسى لماذا نجعله يركض . السباق مبدئياً يهمنا اكثر من الغاية . وهكذا الأمر في كل شيء . ان معنى الحياة عند المستعمر الدي يؤسس امبراطورية هو الفتح . والجندي الفاتح يحتقر المستعمر المستوطن . ولكن ألم تكن الغاية من ذلك الفتح توفير الاقامة لهذا المستعمر المستوطن ؟ وهكذا الامر في حماستنا لتقدمنا ومنجزاتنا ، جعلنا الناس يعملون في مد السكك الحديدية واقامة المصانع وحفر آبار النفط ولكننا نسينا اننا ما شيدنا هذه المنشآت إلا لخدمة الناس . كانت اخلاقنا ، طوال مدة الفتح ، اخلاق جنود . ولكن علينا الآن أن نستوطن . يجب ان نبعث الحياة في هذا المنزل الجديد الذي لم يتخلّق بعد . لقد كانت الحقيقة عند احدنا ان يبني، وهي عند الآخر في ان يسكن .

ولا ريب في أن منزلنا يغدو ، شيئاً فشيئاً ، اكثر انسانية . الآلة ذاتها

كلما خطت في معارج الكمال كلما ازداد امحاؤهــا وراء دورها . ويبدو أن كل ما يبذله الانسان من جهد ، كل ما يجريه من حسابات ، كل ليــالي الأرق التي يقضيها وراء المصورات والمخططات ، لا يؤدي ، من حيث الــنتائج المنظورة ، إلا الى البساطة وحدها ، حتى ان تجارب اجيــال عديدة كانت ضرورية لكي نخرج بالجهـد ، وشيئاً فشيئاً استدارة العمود وانسياب جسم السفينة او الطائرة ، أن نهب هؤلاء جميعــاً النقاء البدئي لاستدارة النهد او الكتف . ويبدو ان عمل المهندسين ، والرسامين ، والحاسبين في مكاتب الدراسات ليس له هدف ظاهر إلا محو هذا اللحام وتخفيف اثره ، إلا موازنة هذا الجناح حتى لا يلحظه أحد ، حتى لا يعود جناحاً متشبثاً بجسد الطائرة بل شكل كامل التخلق والتفتح ، شكل انبثــق من مادته الأولى ، شيء عضوي ، متلاحم على نحو خفي غامض من النوع ذاته الذي للقصيدة . ويبدو أننا نبلغ الكمال لا عندما تنتفي الضرورة الى اضافـــة شيء وانما عندما يستحيل علينا ان نحذف شيئاً . والآلة ، في نهاية تطورها ، تختفي .

وهكذا فان كال الاختراع ينتهي الى اختفاء الاختراع نفسه . ومثلمــا تمحي ، في الأداء ، كل آلية ظاهرة شيئاً فشيئاً وتسلم الينا عفوية ، طبيعية ، مثل حصاة صقلها البحر ، كذلك فان من الرائع في استخدامنــا للآلة ان تحملنا رويداً رويداً على نسيانها .

في الماضي كنا نجد انفسنا أمام مصنع معقد ، وأما الآن فاننا ننسى ان هنالك محركاً يدور ، لأنــه آخر الأمر يقوم بوظيفته ، التي هي الدوران ، مثل قلب يخفق ، ونحن لا نعير انتباهنا لقلبنا الذي يخفق . هــذا الانتباه لم يعد تستغرقه الأداة . ذلك لان ما بعد الأداة ، من خلالها ، انما نجد الطبيعة العنيفة ، طبيعة البستاني والملاح والشاعر .

والطيار الذي يقلع انما يدخل في صلة مع الماء ، مع الهواء . والمحركات ، عندما تندفع ، عندما يحفر الجهاز البحر ويصارع الاواذي القاسية يرن جسد

الطائرة مثل الصنج ، والانسان يستطيع ان يتتبع هـذا العمل من الاهتزاز الذي يزلزل ظهره . انه يُحس الطائرة المائية ، ثانية بعـد ثانية ، وكلما ازدادت سرعتها ، توسق بالسلطة . يحس ان ذلك النضج الذي يتيح الطيران ينطبخ في تلك الاطنان الخمسة عشر من المعدن . ويطبق الطيـار يديه على مفاتيح القيادة واذا هو يتلقى السلطة ، شيئاً فشيئاً ، في قعر راحتيه ، كأنها هبة وعطاء . وكلما وثق من ان العطاء قد مُنـح له ازداد شعوراً بأن هذه المفاتيح ما هي إلا رسله الى القوة . وما ان تنضج هـذه حتى يفصل الطيار ، بحركة أكثر أناقة ولـدانـة من حركة جني الاثمار ، الطائرة عن الماء ويمخر بها عباب الهواء .

الفصل الرابع

الطائرة والكوكب

١

الطائرة آلة ولا شك ، ولكن أية أداة تحليل هي ! هذه الاداة جعلتنا نكتشف الوجه الحقيقي للارض . والواقع ان الطرق قد خدعتنا طوال قرون . وكنا نشبه تلك الملكة التي رغبت في زيارة رعاياها ومعرفة ما اذا كانوا هانئين في ظل حكمها . ولكن حاشيتها ، رغبة منهم في خداعها عن الحقيقة ، أقاموا على طريقها زينات بديعة ، واشتروا مؤيدين مأجورين ليرقصوا على طول الطريق ويظهروا الافراح ، فلم تشاهد من مملكتها شيئاً خارج هذا الخيط الهزيل المهيأ ، وما علمت قط أن في أرجاء الارياف العريضة أناساً يموتون من الجوع ويلعنونها .

وهكذا فقد كنا نخبُّ في هذه الطرق المتعرجة التي تحيد عن الارضين القاحلة والصخور والرمال وتستجيب لحاجات الانسان فتنتقل من ينبوع الى ينبوع ، تحمل القرويين من اكواخهم الى اراضي القمح ، تستقبل عند وصيد الاسطبلات الماشية التي لا تزال تهوم من النعاس وتقذف بها مع الفجر في المراعي . انها تشج هذه القرية بتلك القرية لان ناس هذه وتلك يتزاوجون .

فاذا غامرت احدى هذه الطرق بقطع الصحراء وجدتها تنعطف مائة انعطافة لكي تتنعم بالواحات .

وهكذا ، حين خدعتنا منعطفاتها كما تخدع الاكاذيب البيضاء ، ونحن نسير في رحلاتنا الطويلة على كتف اراض حسنة السقيا وبساتين ريانة ومراع خصبة ، فاننا ظللنا زمناً مديداً نحلّي صورة سجننا . لقد حسبنا أن هذا الكوكب رطب رقيق .

ولكن بصرنا أضحى حديداً ، وحققنا تقدماً رهيباً. تعلمنا ، بالطائرة ، الخط المستقيم . وما كدنا نقلع حتى هجرنا تلك الطرق التي تنعطف نحو موارد المياه والاسطبلات ، او تتأفعى من بلدة الى بلدة ، واذا نحن ، بعد هذا ، قد انعتقنا من اصفاد عبوديتنا الحبيبة وتحررنا من حاجاتنا الى الينابيع ، فيممنا طائرتنا غاياتنا البعيدة . حينئذ وحسب بدأنا نكتشف ، من أعلى طرقنا المستقيمة ، أسّنا الجوهري ، قاعدة الصخور والرمل والملح ، حيث تغامر الحياة احياناً هنا وهناك ، مثل نثار قليل من الطحلب في حفرة خربة ، في إطلالة زهرة .

وها نحن أولاء قد تحولنا الى فيزيائيين ، الى بيولوجيين ، نتفحص حضاراتنا التي تمرع في بطون الوديان ، والتي تتألق وتزدهر ، بمعجزة احياناً ، كأنها الجنبات ، كلما أنست من الاقليم عوناً . ها نحن أولاء نبحث الانسان على المستوى الكوني ، نراقبه من خلال كوى الطائرة كأننا ننظر اليه من خلال أدوات للدراسة . ها نحن أولاء نقرأ تاريخنا كرّة أخرى .

٢

الطيار الذي يتجه الى مضيق ماجلّان يطير ، الى الجنوب قليلاً من ريو غاليغوس ، فوق مدّ من حمم بركانية قديمة . هذه الانقاض تجثم على

السهل بسماكتها التي تبلغ عشرين متراً . ثم ان الطيـار يصادف مداً بركانياً ثانياً ، وثالثاً ، وفيما بعد كل تلعةٍ في الارض ، كل مرتفع من مائتي متر يحمل فوهته في جانبه . ما من فيزوف مزهو هنا : ليس ثمـة إلا فوهات مدافع مركوزة على السهل ذاته .

ولكن الهدوء قد ساد اليوم . أنت تفاجئه وأنت دهِشٌ في هذا المشهد الباهت ، حيث كان ألف بركان يصاول واحدها الآخر بأرغناتها الأرضية اذ هي تبصق حممها . وأمـا الآن فأنت تطير فوق أرض خرساء ، يزينها جمد أسود .

ولكن ، أبعد من ذلك ، براكين أقـدم من هذه ، تكتسي حشائش ذهبية . وتنبت في بعض الأحيان شجرة في وهداتها مثـل زهرة في أصيص عتيق . وتحت ضوء له لون المغيب ، يتجلى السهل انيقاً موسراً مثل جنينة ؛ مُنَـعَّمٌ بالعشب القصير لا يعاني القبب إلا حول فوهاته العملاقـة . ويطفر أرنب بري ، ويطير عصفور . والحياة تملكت كوكباً جديداً ، اذ حطّت عجينة الحياة اخيراً على النجم .

واخيراً ، قبيل بونتا آريناس ، تُردم آخر الفوهـات . ويكسو عشب متجانس استدارات البراكين فما هي بعـد ذلك إلا عذوبة . ويُرتَـقُ كل خرق بهــذه الخيوط الهشة الطرية . واذا الأرض ملساء والسفوح يسيرة الانحدار حتى إنك لتنسى أصلها . هـذا العشب يمحو من جنينات الهضاب الآثار القاتمة .

وها هي ذي أبعد مدن العالم الى الجنوب ، أتاحتها صدفة وجود قليـل من الطين بين كتلتين من الحمم البركانية الاصلية والجموديات الجنوبية . وإنها لشديدة القرب من دفقات المد السوداء ، فيا لشدة ما نحسُّ معجزة الانسان! ويا للسقاء المدهش ! انك لا تعلم كيف ، لا تعلم لماذا يزور ذلك المسافر تلك الحدائق المنسقة التي تتاح سكناها خلال وقت شديد القصر ،عصرٍ جيولوجي، يوم مبارك بين الايام .

وهبطتُ في عذوبة المساء . بونتـا آريناس ! ورحت أُسند ظهري الى ينبوع وأنظر الى الصبايا . واذا انا ، على بعد خطوتين من سحرهن ، أحسُّ احساساً أكمل باللغز الانساني . عالم تشج فيه الحياة بالحياة وشجاً ، يعرف التمُّ كل أطيار التمّ في الدنيا ، في هذا العالم يبني الناس ، هم وحدهم ، أسوار تفردهم وتوحدهم .

يا للفضاء الذي يمدُّ نصيبهم الروحيَّ أروقته فيما بينهم ! إن حلمـاً تحلمه صبية من الصبايا يفصلها عني ، فكيف السبيل الى لقياها فيه ؟ وما عساك أن تعرف عن فتاة صبية تعود الى بيتها بخطىً وئيدة وعيناهـا الى الارض ، تبتسم لنفسها وقد اطمأنت الى ما هيأته من الذرائع والأكاذيب الحبيبة ؟ لقد استطاعت ، من أفكار حبيب ، من صوته وفترات صمته ، أن تشيد مملكة ، ومنذ هذه اللحظة لم يعد في الدنيـا – ما خلا إياه – إلا أغراب . اكثر من هذا ، لو انك نقلتها الى كوكب آخر لأحسستها سجينة سرهـا ، سجينة عاداتها والأصداء المغنية في ذاكرتها . لقـد ولدت امس من البراكين ، من العشب أو من ملح البحار وها هي ذي إلهيّة أو تكاد .

بونتا آريناس ! وأنا اسند ظهري الى ينبوع . عجائز يأتين يستقين منه ، وأنا لن أعرف من مأساتهن إلا هذه الحركات الخادمـة . وطفل ركى ظهره على الجدار يبكي في صمت . لن يبقى في ذاكرتي منه إلا طفل جميل لا عزاء له أبداً . أنا غريب . لا أعلم شيئاً ، ولا أدخل الى ممالكهم ابداً .

في أي تزيين رقيق ُتمثَّل هذه اللعبة الشاسعة ، لعبة الاحقاد والصداقات والأفراح الانسانية ! من أين يغرف الناس هـذا التذوق للخلود ، هم الذين رمتهم الاقدار على حمم لا تزال دافئة ، والذين تهددهم ، وما تزال ، الرمال المقبلة ، تهددهم الثلوج ؟ وما حضاراتهم إلا حلى رخصة : يمحوها بركان ، بحر جديد ، عاصفة رملية .

وتبدو هذه المدينة تستقرُّ على ارض حقيقية نخالها غنية عمقاً مثل أرض

« بوس [1] » وننسى أن الحياة ، هنا مثلها في أي مكان آخر ، ترف ، وان ليس ثمة مطرح أرضُه حسنة العمق تحت اقدام الناس . ولكني أعرف على بعد عشرة كيلومترات من بونتا آريناس غديراً يكشف لنا عن هذا الأمر . هذا الغدير تحف به أشجار قميئة ومنازل واطئة ، متواضع مثل رامة في فناء مزرعة ، يهاجمه المد والجزر على نحو لا تستطيع له تأويلاً . وهو يتابع تنفسه الوئيد بين هذا الحشد من الوقائع الوادعة ، بين هذه الظلل من القصب ، وهؤلاء الاطفال يلعبون ، ويخضع الى قوانين أخرى . وتحت السطح الموحد ، تحت الجليد الذي لا حراك فيه ، تحت الزورق الوحيد البالي تفعل قوة القمر فعلها . وتؤثر التيارات البحرية ، في هذه الاعماق ، اثرها في هذه الكتلة السوداء . وتستمر عمليات هضم عجيبة ، هنا ، حول مضيق «ماجلان» وحتى تبلغه ، تحت كسوة خفيفة من العشب والأزهار . هذا الغدير الذي يبلغ عرضه مائة متر ، على عتبة مدينة يخال الانسان فيها نفسه كأنه في منزله ، هذا الغدير المستقر جيداً على أرض الناس ، يخفق لنبض البحر .

٣

نحن نقطن كوكباً تائهاً ، يطلعنا ، بين حين وآخر وبفضل الطائرة ، على أصله : غدير صغير تتصل أسباب له بالقمر يكشف صلات للقربى مخبأة – ولكني عرفت امارات اخرى .

على حافة الصحراء ، بين رأس جوبي وسينيروس ، يطير الانسان من بعيد الى بعيد فوق أكمات مخروطية الشكل يتراوح عرضها بين بضع مئات من الخطوات وحوالي ثلاثين كيلو متراً . وارتفاعها المتساوي على نحو بيّن يبلغ ثلاثمائة متر . ولكن ، ما خلا هذه المساواة في المستوى ، فانها تمكس

---

(١) ارض في فرنسا خصبة جداً ، غنية بالقمح .

الألوان ذاتها ، والتربة ذاتهـا ، وقولبة صخورها هي ذاتها . ومثلما تنبثق اعمدة أحد الهياكل من الرمال فتكشف عن آثار المصلّى الذي تهدم ، كذلك فان هذه الركائز الطبيعية المنعزلة شاهد على أن أكمة واسعة واحـدة كانت تجمعها بعضها الى بعض في القديم .

وخلال السنوات الاولى لخط الدار البيضاء – داكار ، أيام كانت الاجهزة رخصة كانت الأعطال او عمليات البحث والانقاذ غالباً ما تجبرنا على الهبوط في الأراضي الثائرة . ولكن الرمل خدّاع : انك تحسبه ثابتاً واذا هو يمور من تحتك . وأما المالح القديمة التي تبدو لك في متانة الاسفلت وترنُّ رنيناً قاسياً تحت كعبيك فانها تتخاذل أحياناً تحت وطأة العجلات . واذا قشرة الملح البيضاء تُبقَر عن نتن مستنقع أسود . وهكذا فقد كنا نتخيَّر ، كلما سمحت لنا الظروف ، سطوحاً ملساء من هذه الآكام لانها لا تخبىء ، لنـا شراكاً ابداً .

ومردُّ هذه الضمانة الى وجود رمل شديد المقاومة ، ثقيل الحبات ، كتل ضخمة من الاصداف الدقيقة . هذه الأصداف التي لم تمس تراهـا على سطح الأكمة تتفتت وتتجمع كلمـــا هبطت على طول السفح . فاذا بلغتَ أقدم مستودع ، في قاعة الأكمة ، وجدتها تستحيل الى كلس نقي .

وقد حدث ، ايام أسر « رين » و « سيرّ » ، رفيقينا اللذين قبض عليهما رجال القبائل الثائرة ، أني هبطت لأنزل رسولاً مغربيـاً ، وبحثت معه ، قبل ان اتركه ، عن طريق يستطيع ان يسلكه في هبوطه الى منطقة القبائل. ولكن سطحنا كان ينتهي من جهاته جميعاً بمقاطع صخرية تتحدر عمودياً الى القاع وتتموج تموجاً خفيفاً كالسجف . وكانت كل محاولة للهرب مستحيلة .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد لبثت هناك قبل ان أقلـع للبحث عن مهبط آخر . كنت استشعر فرحة قـد تكون طفولية في ان ارى اثر خطاي على ارض لم يدنسها من قبل حيوان أو انسان . وما من مغربي استطاع ان يقفز

الى هذا الصرح المشيد . ما من اوروبي استكشف قط هذه الارض . ورحت ازرع هذا الرمل الذي لا نهاية لبكوريته . كنت اول من استطاع ان يُجري طحين الاصداف ذاك من يدٍ الى اخرى مثل نثار من الذهب ثمين. كنت اول من عكر ذالك الصمت . وعلى هذا القفر الذي يشبه مركبة جليدية قطبية ، حيث لم تطل ، منذ الابد ، نتفة عشب واحدة ، كنت اشبه الاشياء ببذار جاءت به الريح ، اول شاهد على الحياة .

وكانت نجمة قد اخذت تلمع فتأملتها . ودار في خلدي ان ذلك السطح الابيض ظلّ منتجعاً للنجوم وحدها منذ مئات الالوف من السنين . غطاء محبَّر ممتد تحت السماء الصافية . واحسست بخفقة في قلبي ، كأني على وشك ان اكتشف اكتشافاً عظيماً ، حينما لمحت على ذلك الغطاء ، على بعد خمسة عشر او عشرين متراً مني ، حصاة سوداء .

كنت اقف على سماكة ثلاثمائة متر من الاصداف . كانت الركيزة الضخمة كلها بمثابة بينة قاطعة على انتفاء وجود اي نوع من انواع الحجارة . ربما كان في الاعماق الارضية حجارة صوانية متأتية من عمليات الهضم البطيئة التي عرفتها الكرة الارضية ، ولكن اية معجزة رفعت احداها حتى هذا السطح الجديد كل الجدة ؟ وانحنيت ، واجف القلب ، اتناول لقيّتي : حصاة صلبة ، سوداء ، بحجم قبضة اليد ، ثقيلة كأنها من معدن ، لها انسياب يهبها شكل قطرة الدمع .

ان غطاء مفروشاً تحت شجرة تفاح ما عسى ان يتلقى غير التفاح ! وغطاء مفروش تحت مصابيح السماء ، هل يمكن ان يتلقى غير رهج النجوم؟ ألا ان اي شهاب ساقط لم يستطع الكشف عن اصله بمثل هذه البداهة قط .

وطبيعي اني فكرت وانا ارفع رأسي من اعلى شجرة التفاح السماوية تلك ان اثماراً اخرى لا بد وان تكون تساقطت ، اني سأجدهنّ في مسقطهن ذاته ، طالما ان شيئاً لم يستطع ازعاجهن عنه منذ مئات الالوف من السنوات،

طالما انهن لا يمكن ان يضعن في مواد اخرى . وسرعان ما رحت أسبر المكان لدعم بديهيتي .

ولقد تحققت . جمعت لُقاي بمعدل حصاة في كل هكتار . دائمـاً منظر الحمم المتشكلة ذاته . دائماً صلابة الالماس الاسود ذاتها . وهكذا شهدت ، في هذا المختصر الخلاب ، من أعلى مقياس المطر -- النجمي ذاك : ذلك المدرار البطيء من نار .

٤

ولكن اروع من هذا كله ان يوجد هنالك ، واقفـاً على ظهر الكوكب المستدير ، بين هذا الغطاء المغنط وتلك النجوم ، وجدان انسان يستطيـع هذا المطر ان ينعكس فيه كأنه في مرآة . وعلى ركيزة من فلزات المعادن يكون الحلم معجزة . واني لاذكر حلماً ...

ذات مرة وقعت هكذا على منطقة من الرمل السميك ، وطفقت انتظر الفجر . كانت الهضبات المذهبة تستقبـل القمر بسفحها المنّور ، بينما سفوح معتمة ترتفع حتى تبلغ خط انشطار النور . على هــذا المشغل القفر للظلمة والقمر كان يرفل سلام العمل المتوقف ، وكذلك صمت الشرك الذي غفوت في قلبه .

لما افقت لم أرَ شيئاً إلا حوض السماء الليلية ، ذلك لأني تمددت على ُقنّة من القنن ، وذراعاي متعانقتان ووجهي الى ذلك الحوض[1] من النجوم . ولما كنت لم افهم بعد كنهَ هاتيك الاعماق فقد اخذني إغماء اذ كنت يعوزني جذر يشدني ، سقف ، او غصن شجرة يمتد بين هذه الاعماق وبيني . كنت متقطع العرى ، ُمسلـَماً للهاوية مثل غواص .

---

(١) سانت اكزوبيري استخدم كلمة تعني : بركة السمك .

ولكني لم اسقط قط . اكتشفت أني معقود الى الارض من قذالي حتى كعبيّ . أحس نوعاً من التهدئة في ان اسلم اليها عبثي . كانت الجاذبية تبدو لي قهارة كالحب .

وكنت احس ان الارض تدعـم صلبي ، تسندني ، ترفعني ، تنقلني في فضاء الليل . واكتشفتني منطبقاً على الكوكب بثقل يُشبه ذلك الذي يشدك الى عربة حينما تنعطف مسرعة . كنت اتذوق هذه الرفاقة البديعة ، هـذا الابَدَ ، هذه السلامة ، واعرف ، تحت جسدي ، ذلك الجسر المنحني لسفينتي .

وكان وجداني بأني محمول من الشدة ، حيث أني قد اصيخ السمع ، من غير ان تَعرُوَني دهشة ، الى شكاة المواد التي تتهادن في الجهد ، ذلك الانين تئنـه المراكب الشراعية العتيقة الآيبة الى مأواها ، تلك الصرخة الحادة تصدر عن القوارب التي أزعجت . ولكن كان الصمت يستمر في عمق الارضين . ولكن ذلك الثقل يتكشف في كتفيّ ، متناغماً ، مستمراً متساوياً الى الابد . كنت حقاً أقطن هذا الوطن ، مثلما تستقر اجساد الارقاء بعـــد وسقها بالرصاص في قاع البحار .

وتأملت في مآلي انا الضائع في القفر ، المهدد ، العاري بين الرمل والنجوم ، النائي عن كل قطب من اقطاب حياتي بأكثر مما ينبغي من الصمت . ذلـك لاني كنت سأخلِقُ في انتظار الوصول الى هذه الاقطاب ، اياماً ، اسابيـع ، اشهراً اذا لم تأت طائرة تنتشلني ، واذا لم يذبحني المغـاربة في غد . ههنا لم أكن أملك شيئاً في الدنيا . لم اكن اكثر من انسان فان تائه بين الرمـل والنجوم ، يحس عذوبة التنفس وحدها ..

وعلى الرغم من هذا كله اكتشفتني طافحاً بالاحلام .

وفدتْ علي ، ولا ضوضاء ، مثل امواه الينبوع ، ولم افهم بادىء الامر ، تلك العذوبة التي كانت تغزوني . لم يكن هنالك اصوات او صور ، ولكنه احساس بحضور ، بصداقة متينة العرى تكاد تعرفها . ثم فهمت واستسلمت ، مغمض العينين ، للهناءات التي تغدقها عليّ ذاكرتي .

في مكان ما ، جنينة موقرة ٌ بالصنوبر الاسود والزيزفون ، ومنزل كنت احبه . ما ضرني أنه كان قصياً او دانيـاً ، ألا يكون في وسعه ان يُدفىء لحمي او ان يظلني ، وانه اقتصر وجوده ههنا على مجرد الحلم . كان حسبه ان يوجد حتى يملأ ليليَ حضوره . ولم أعـد ذلك الجسم الذي سقط على منبسط الرمل ، بل كانت لي وجهة اوليها ، كنت طفلَ ذلك المنزل المفعم بذكرى طيوبه ، المفعم بطراوة دهاليزه ، المفعم بالاصوات بعثت الحياة فيه . المفعم حتى بغناء الضفادع في الغدران ، تأتي الى ههنا فتصلني . وكنت احتاج الى هذه الصُوى الألف حتى اتعرف الى نفسي ذاتها ، حتى اكتشف من أي انواع الغياب صنع مذاق هذا القفر ، حتى اجـد معنى لذلك الصمت الذي صنع من ألف صمت ، حيث تسكت حتى الضفادع .

لا ، لم أعد أسكن بين الرمل والنجوم . لم أعـد اتلقى من التزيين الذي حواليَّ إلا رسالة باردة . مذاق الأبدية نفسه ، وقد حسبت اني منه قبسته ، بدأت اكتشف الآن اصله . كنت ارى من جديد خزائن المنزل الفخمة مُواربةً عن اكداس من الأغطية البيضاء كالثلج . كانت توارب على متون جمدها ثلج . والمدّبرة العجوز تهرول ، مثل فأر ، من واحـدة الى اخرى وهي تفحص وتطوي وتنشر وتعيد عدَّ المفارش البيضاء ولا تنفك تصيح : « آه ، يا ربي ، يا لها مصيبة » ، كلما بدا لها نذيرِ بلى يهدد خلود المنزل ، وسرعان ما تهرع فتحرق عينيها تحت مصباح ما ، في رَفـْوِ أغطية معبد ، او رتق اشرعة سفينة ، في خدمة شيء أعظم منـــه لا ادري أإله هو او سفينة .

أجل ان من حقـّكِ علي ان اخصك بصفحة . لما كنت اعود من رحلاتي الاولى ، ألفيكِ ، يا آنستي ، والابرة في يدك ، غرقى حتى ركبتيك بأمواجك البيضاء ، وكل سنة تزدادين تغضناً ، تزدادين بياضاً ، وانت تهيئين بيديك الاثنتين هذه المفارش التي ما فيها ليّ لهجوعنا ، هـذه الاغطية التي لا تظهر

فيها خياطة لوجبات طعامنا ، هـذه الاعياد البلورية التي يعيّدهـا النور . وكنت ازوركِ في بياضك ، اجلس قبالتك ، اروي لك المهالك التي اخوضها لاستثيرك ، لأفتح عينيك على الدنيا ، لأفسدك . وتقولين اني لم اتغير قط . كنت وانا طفل بعد امزق قمصاني – آه ! يا لها مصيبة – وأجرّح ركبتي ، واعود الى المنزل لتُضمّد لي جروحي ، كما هي الحال هذا المساء . ولكن ، لا يا آنستي ! أنا لم اكن عائداً من آخر الحديقة كما كنت افعل ، ولكن من آخر الدنيا ، أحمل معي روائح الوحدة الحافرة ، سافيات الرمال ، اقمار المناطق الاستوائية الباهرة ! وتقولين لي : مؤكدٌ ان الصبيان يركضون ، يكسرون عظامهم ، ويظنون انفسهم اقوياء جداً . ولكن لا ، لا يا آنستي ، لقـد رأت عيناي ما هو ابعد من تلك الحديقة ! لو كنت تعلمين كم هي قليلة تلك الافياء ! كم تبدو ضائعة بين الرمال والصخور والغابات العذراء وغدران الارض . أتعلمين ان هنالك ، مطارح لا يكاد الناس يلمحونك فيهـا حتى يتنكبوا بنادقهم؟ أتعلمين ايضاً ، يا آنستي ، ان هناك صحارى ينام الناس فيها في الليل الصقيع من غير سقف ، من غير سرير ، من غير مفارش ...

وتقولين : « آه ، يا متوحش » .

ولم اكن انال من ايمانها إلا ما يمكن ان تنساله من خادم كنيسة عجوز . وكنت ارثي لمصيرها المتواضع الذي جعلها عمياء صماء ...

ولكن ، في تلك الليلة في الصحراء ، وانا عارٍ بين الرمل والنجوم قدرتها حق قدرها .

لا ادري ما يجري فيّ . هذا الثقل يربطني الى الارض بينا هذا الحشد من النجوم ممغنطة . ثقل آخر اعادني الى ذاتي . احسُّ ثقلي يشدني الى حشد من الاشياء ! احلامي اكثر واقعية من هذه الكثبان ، من هذا القمر ، من هذه

الالوان من الحضور ، آه ، ان أعجب ما في منزل ما ليس في انه يؤويك او يدفئك ، او في انك تملك منـه الجدران . ولكن في هذا الذي يضمه فينا ، هوناً ما ، من مؤن العذوبة . في انه يشكل ، في قرارة القلب ، هذه الكتلة المظلمة التي منها تولد ، مثـل أمواه الينبوع ، مواكب الاحلام ..

يا صحرائي ، يا صحرائي ها انت ذي تـحرك جميعاً غزّالة صوف !

الفصل الخامس

واحة

أطلت الحديث عن الصحراء حتى اني اود ، قبل ان امضي في الكلام عليها ايضاً ، ان اصف لكم واحة . هذه الواحة التي تعاودني صورتها ليست ضائعة في قاع الصحراء . ولكن للطائرة معجزة اخرى في انها تغوص بك مباشرة في قلب السرّ . وقد تكون ذلك البيولوجي الذي يدرس، من خلف كوّة الطائرة ، مستعمرة النمل الانسانية ، او قد تطيل النظر ، جامد القلب ، الى هذه المدن المتربعة في سهولها ، في مركز طرقها التي تتشعع مثل نجمة والتي تغذيها، مثل الشرايين، بنُسغ الحقول. ولكن إبرة ارتعشت على لوحة مانومتر ، واذا هذا الدغل الاخضر ، هناك في الاسفل ، يغدو كوناً ، واذا انت أسير عشب رقيق في حديقة هاجعة .

ليست المسافة هي التي تقدر مدى البعد . ان جدار بستان من بساتيننا يسعه ان يضمّ من الاسرار ما لم يضمه .

لا يقاس النأي بالمسافة . قد يسع جدارُ جنينةٍ صغيرة ان يضم من الاسرار ما لم يضمّ سورُ الصين ، وقد يحمي الصمت روح بُنَيّة صغيرة اكثر مما تحمي الرمال الصفيقة الواحات الصحراوية .

وسأروي حكاية محطة قصيرة في مكان ما من العالم . كان ذلك غير بعيد

من «كونكورديا» في الارجنتين ، ولكنه ممكن الحدوث في اي مكان آخر : فالسر منتثر هكذا .

هبطت في حقل ، وما دريت اني على وشك ان احيا احدى حكايات الجانّ . تلك الفورد العتيقة التي كنت انطلق فيها لم يكن فيها ما يلفت الانتباه بخاصة ، لا ولا تلك الاسرة التي استقبلتني .

— سنؤويك الليلة ...

ولكن في احد منعطفات الطريق ، كان ينبسط باقة من الاشجار ووراء هذه الاشجار ذلك المنزل . اي منزل غريب ! منخفض ، مكتنز ، يكاد يشبه قلعة من القلاع . قصر اساطير ، ما إن تجتاز مدخله حتى يهديك ملاذاً وادعاً ، اميناً ، محمياً مثل دير .

حينئذ ظهرت فتاتان تفرستا فيّ بنظرة جهمة مثل قاضيين منتصبتين على وصيد مملكة محرمة : واما الصغرى فقد لمت فمها وابدت حركة عبوس ونقرت الارض بعصا خضراء ، فلما تعارفنا بسطتا لي يديهما من غير ان تنبسا ، في نوع من التحدي الطريف ، واختفتا .

اطرفني ذلك وفتنني . كان هذا كله بسيطاً ، صموتاً ، مخطوفاً مثل الكلمة الاولى لأحد الاسرار .

وقال الأب في بساطة :

— إي ، إي ! انهما متوحشتان .

ودخلنا .

كنت احب في باراغواي ذلك العشب الساخر الذي يُظهر انفسه بين حجارة العاصمة ، قادماً من لدُن الغابة العذراء ، الماثلة ولو كانت غير منظورة ، ليرى ما اذا كان الناس لا يزالون قائمين على مدينتهم ، ما اذا كانت الساعة قد دقت لكي يدحم قليلاً هذه الاحجار كلها . كنت احب هذا

الشكل من التخريب الذي لا يعبر إلا على فيض مفرط من الغنى . ولكني هنا كنت مذهولاً عجباً .

ذلك لأن كل شيء كان خَرباً في المنزل ، وعلى نحو فاتن ، مثل شجرة بلغت من العمر عتياً ، كساها الطحلب وشققتها السنون قليلاً ، مثل المقعد الخشبي ما زال العشاق يقصدونه ويجلسون عليه جيلاً بعد جيل . كان الخشب مهترئاً ، والمصاريع نخرة ، والكراسي متخلعة . ولكن اذا كان السكان لا يرمون هنا شيئاً فانهم ينظفون ، في حمية . كان كل شيء نظيفاً ، ملمعاً ، ساطعاً .

وكان يطالعك من الصالة وجه ممعن في القدم والتعقيد مثل وجه عجوز ملأته التجاعيد . وكنت أُعجب بكل شيء : تشقق الجدران، تمزق السقف، وفوق كل هذا تلك الارضية المتصدعة هنا ، المزعزعة هناك ولكنها ملمعة تكاد تضيء . يا له منزلاً غريباً لا تعثر فيه على اي اهمال ، على اي تهاون ، ولكن على توقير خارق . ولا ريب ان كل سنة تجيء كانت تضيف شيئاً على فتنته ، على تعقيد وجهه ، على حرارة جوه الصداقي ، وكذلك الحال في اخطار الرحلة التي يجب ان يقوم بها الانسان حتى ينتقل من الصالة الى غرفة الطعام .

– انتبه !

كان ثمة حفرة . ولُفِت نظري الى اني في مثل هذه الحفرة قد اسقط فتنكسر ساقاي . ولم يكن احد مسؤولاً عنه ، لانه من فعل الزمن . هذا الحاكم الذي يتعالى على كل اعتذار يسير وهو يجرُّ ذيول التيه . ولم يقل لي سكان البيت : « نحن قادرون على سد هذه الحفر . نحن أغنياء ، ولكن .. » لا ، ولم يقولوا لي – وان تكن هذه هي الحقيقة – « نحن نستأجر هذا من المدينة لمدة ثلاثين سنة . وهي المسؤولة عن ترميمه . ولكن كلاً منا يتشبث برأيه .. » انهم يزدرون كل تعليل ، وهذا اليسر ملأ قلبي حبوراً . وقصارى ما ابدوه ان لفتوا نظري :

– إيه ، إيه ! انه بال بعض الشيء ...

ولكنها ألقيت في لجة من الخفة والرقة حيث خطر لي ان بلى المنزل لا يحزن اصدقائي اكثر مما ينبغي . أتصدق ان يَغدَ فريــق من البنائين والنجارين والمؤثثين والدهانين وقد امتشقوا – في وجه ماض مثـل هذا – عدتهم الجاحدة واذا هم ، خلال ثمانية ايام ، يبعثون هذا المنزل خلقاً جديداً، حتى لتكاد تنكـر ان تكون عرفته من قبل ، او تكاد تقبل عليه زائراً ؟ منزلاً بلا اسرار ولا مخابىء ولا فخاخ تحت الاقدام ، ولا مخادع . منزلاً هو أشبه بردهة في فندق ؟

وكان طبيعياً جداً ان تختفي الفتاتان في هــذا المنزل ذي الأحابيل . ما عسى ان يكون بيت المونة حينما تحوي الصالة كنوز بيت للمونـة ! حينما يكون الوافد قد عرف ان ستنصب ، من أقل فتحة تنفتحها خزانـة من الخزائن الجدارية ، أكداس من الرسائل الصفراء ، من وصولات جَدّ الجد ، ذلك لأن ثمة عدداً من المفاتيح يفوق عدد الاقفال في المنزل ، مفاتيـح لا « يركب » أي منها على اي قفل . مفاتيح لا نفع لها على نحو رائـع ، تحيّر العقل وتحملك على ان تحلم بسراديب ، بصناديق مخبـأة ، بتلال من الذهب المدفون .

– لننتقل الى المائدة . هل تتفضل ؟

ونمضي الى المائدة . كنت اتنشق ، من حجرة الى حجرة ، تلك الرائحة، التي تضوع كالبخور ، رائحة المكتبة العتيقة التي تسوى طيوب الدنيا كلها . وكنت أحب على الاخص نقل المصابيح . مصابيح حقيقية ، ثقال ، ينقلونها من حجرة الى اخرى ، تعيدني الى أعمق اعمـاق طفولتي ، وتؤرجح على الجدران ظلالاً رائعة ، فاذا حُركت رسمت باقات من النور وسعفات سوداء، حتى اذا استقر بها المكان جمدت شطآن ضياء تحف بها لجج الظلام ، حيث يطقطق الخشب القديم .

وعادت الفتاتان الى الظهور في مثل الخفـاء والصمت اللذين اختفتا بهما .

وجلستا الى المائدة عابستين . لا بـد انها أطعمتا الكلاب والعصافير وفتحتا نوافذهما على الليل الصافي ، وترشفتا في نسمات المساء رائحة النبات . كانتا الآن تنشران فوطتيهما وترقبانني بطرف العين ، في حذر ، متسائلتين ما اذا كانتا ستدرجانني بين حيواناتهما الداجنة او لا . ذلك لانهما تمتلكان ايضـاً إيغواناً [١] ومانغوستا وثعلباً وقرداً ونحلاً . كل هذه المخلوقات تحيا مختلطاً حابلها بنابلها ، يسود بينها تفاهم بديع كأنما تصنع فردوساً ارضياً جديداً . وانهما لتهيمنان على حيوانات الخليقة كلها ، تفتننانها بايديهما الصغيرة، تطعمانها ، تسقيانها وتحكيان لها حكايات فتصيخ اليها آذاناً صاغيـة من المانغوست الى النحلات . وكنت اتوقع ان تستنفر فتاتان ، على مثل هذه الحياة الدافقة، كل ملكات النقد عندهما ، كل رهافتهما في اصدار حكم سريع ، خفي ، قاطع على هذا الرجل الذي يجلس معهـما . في صغري كان أخواتي يمطين علامات للمدعويين الذين يشرفون مائدتنا لأول مرة ، فما ان تحور المحادثة الى جمود حتى تسمع فجأة ، في الصمت المهيمن ، صوتاً يرنُّ :

— احدى عشرة !

ولا يتذوق احد ، ما عدا اخواتي وإياي ، مدى سحر هـذا الصوت وبهجته في قلوبنا .

وكانت تجربتي في هـذا المضمار تشيع فيّ بعض الاضطراب . وزاد من حرجي احساسي بأن قاضيتي على قدر من المهارة ، قاضيتـان تعلمان كيف تميزان الحيوانات التي تتقن الخداع من الحيوانات الساذجة ، وتعلمـان ، من خطوات ثعلبهما ، أهو في مزاج طيب او لا ، وتمتلكان معرفـة بعيدة الغور بالحركات المستمرّة .

كنت احب هاتين العينين الثاقبتين ، وهاتين الروحين المستقيمتين، ولكني

---

(١) الايغوان من الزواحف التي توجد في البرازيل وجزر الآنتيل ، جميل الوان الجلد فاخر اللحم . واما المانغوست فحيوان لبون يفترس الزواحف .

كنت شديد اللهفة الى رؤيتها وقد غيرتا من لعبتها تلك ، فأخذت اقدم لها الملح واصب الخمر من غير ان ارفع نظري عن المائدة خوفاً من الـ « احدى عشرة » ان ترنّ من الصمت ، ولكني حينما رفعت عيني طالعني التجهم العذب لقاضيتين لا يمكن شراؤهما .

وحق الثناء لم يُجدِ معهما : كانتا تجهلان الغرور . الغرور لا الزهو الجميل اذ انهما كانتا تجدان في نفسهما ، من غير عوني أنا ، خيراً وحُسناً يفوقان ما قد أجرؤ على التصريح بـه . ولم افكر حتى في الادلال بمهنتي ، لأن الجسارة كل الجسارة في ان تتسلق حتى أعلى الاغصـان في دوحة باسقة لمجرد رؤية ما اذا كان آخر « بطن » من عصافيرك قد بدأ ينبت له ريش ، او لمجرد تحية تلقيها على الاصدقاء الصغار .

وكانت جنيّتاي الصموتان لا تنفكان تراقبان وجبة طعامي جيداً ، كنت غالباً ما اصادف نظرتها الخاطفة حتى انتهيت الى الكف عن الكلام . وهيمن صمت ثم صفر شيء على الارضية ، ضوضى تحت المائدة ، ثم سكت . ورفعت عينين متوجستين متسائلتين . واذا الصغرى ، وقد وضح ان فحصها إياي قد انتهى نهـاية مرضية وان كانت تود ان تختبرني الاختبار الاخير ، تقول لي وهي تقضم خبزتها باسنانها الفتية القوية ، تقول لي في خفر أرادت منه اثارة دهشة الغريب ، اذا كنت انا غريباً :

ـ هذه هي الافاعي .

وسكتت ، راضية كأن الايضاح كان كافياً لأي انسان اللهم اذا لم يكن مفرط البلادة . واما اختها فقـد زّلقت نظرة خاطفة أن تحكم على الحركة الاولى التي سأبديهـا ، وامالت الاثنتان على صحنيهما اعذب وجهين واشدهما براءة .

ـ وي !.. هذه هي الافاعي ..

طبيعي ان هذه الكلمات قد افلتت مني . هـذه انزلقت بين ساقيّ ، تمسحت بربلتي وكانت افاعي ..

ومن حسن حظي اني تبسمت . وبلا خوف : لو خالط ابتسامتي الخوف لكنّ شعرن . ابتسمت لأني كنت مرحاً ، لأن اعجابي بهذا المنزل كان يزداد دقيقة بعد دقيقة ؛ وكذلك لاني كنت ارغب في أن ازداد معرفة بالافاعي .

وانجدتني الكبرى :

– جحرهن هنا ، تحت المائدة .

وأضافت الاخت :

– انها تبيت حوالي الساعة العاشرة مساءً . واما في النهار فتتصيد .

وجاء دوري لاسترق نظرة خاطفة من هاتين الصبيتين الصغيرتين . رهافتهما ، ضحكتهما الخافتة وراء الوجه الهادىء ؛ وانتشي عجباً من هذا السلطان الذي تمارسان ..

وأنا الآن احلم . كل ذلك ممن في النأي . ماذا جرى لهاتين الجنيّتين ؟ لا بد انهما تزوجتا . ولكن هل بدلهما الزواج والانجاب ؟ ما اصعب عبور الجسر الفاصل بين حالي الفتاة والمرأة ! ما عسى ان تصنعا في منزل جديد ؟ إلام آلت وشائجهما مع الاعشاب المجنونة والافاعي ؟ كانتا قد امتزجتا بشي كوني . ولكن لا يلبث ان يطلع فجر تستيقظ فيه المرأة الهاجعة في الفتاة : انها تحلم في ان تمنح آخر الامر تسع عشرة علامة . تسع عشرة تنوء بها قرارة القلب . واذا احمق يتقدم . واذا العينان الذابحتان تخدعانه وتضيآنه بأزهى الالوان . فاذا كان هذا الاحمق ممن يترنم ببيتين من الشعر نحسبه شاعراً . نحسب انه يفهم لغى الارضية المحتفرة ، وانه يحب انواع المانغوست . ونحسب ان هذه الثقة تثقها به افعى تتهادى تحت المائدة ، بين السيقان ، إنما تملأ قلبه زهواً . ونمنحه قلبنا الذي هو بستان متوحش ، نمنحه اليه هو الذي لا يحب إلا الحدائق المعتنى بها . ويمضي الاحمق بالاميرة سبية بين السبايا .

الفصل السادس

في الصحراء

١

مثل هذه اللطائف كانت محرمة علينا حينما كنا طيارين على خط الصحراء[1]، سجناء الرمال خلال اسابيع ، خلال اشهر ، سنوات، نمخر العباب من حصن الى آخر من غير ان نعود . لم تكن هـذه الصحراء تقدم الينا واحة مثل تلك : حدائق وصبايا . يا لها أساطير ! لا ريب ان هناك ، بعيداً جـداً ، كنا نستطيع ان نعاود الحياة بعد الفراغ من اعمالنـا ؛ هنالك ألف صبية كانت تنتظرنا . لا ريب أنهن هنـاك ، بين حيواناتهن الاليفة او كتبهن . ينسجن مصابرات ارواحاً لذيذة . لا ريب انهن يزددن حسناً ..

ولكني اعرف الوحدة . ثلاث سنوات من حيـاة في الصحراء علـمتني طعمها جيداً . الانسان لا يتملكه الذعر فيها لشباب يبلى في ملعب للصخور ، ولكن يظهر ان العالم كله ، بعيداً منه ، هو الذي يشيخ . لقـد شكلت

---

(١) المؤلف يستعمل لفظ البيداء ، او القفر عندما يشير الى مطلق كلمة صحراء ، يعني هذا الامتداد المترامي من الرمال والوحدة ويستعمل كلمة صحراء العربيـة علماً على الصحراء الكبرى التي تمتد من السودان الى الاطلسي تقريباً . وقد كان بودنا ان نستعمل لفظي بيداء وصحراء ولكن القارىء لا يجد عسراً في التمييز اثناء القراءة ..

الاشجار أثمارهـا ، واخرجت الحقول حبّها ، والنسوة يرفلن في حلى الحسن و لوسامة . ولكن الفصل يمن في السير قدماً وعليك ان تعجل في الاياب .. ولكن الفصل يمن في التقدم وانت أسير البعد .. وخيرات الارض تنزلـق بين الاصابع مثل رمل الكثيب الناعم .

والناس لا يحسّون عادة تسرب الزمان وتصرمه. إنهم يحيون في سلام موقت. ولكن ها نحن اولاء نحس ذلك كلما بلغنا محطة وناءت علينـا تلك الرياح الدائمة التي لا تكفُّ عن المسير . كنا نشبه مسافر القطار السريع ذاك الذي ملأته ضوضاء المجلات وهي تقرع في الليـل ، والذي يستشف ، من حفنات النور المتطايرة خلف زجاج النافذة ، انسياب الارياف ، انسياب قراهـا وبيادرها الهانئة ، فلا يستطيع ان يلم بشيء منها لانه في سفر . ونحن ايضاً كنّا حتى في هدوء المحطة نحسُّ اننا ما زلنا على الطريق ، تضطرم في قلوبنا حمّى خفيفة ويستمر الصفير في آذاننـا من أثر الطيران . ونكتشف ، نحن أيضاً ، اننا تحملنـا خفقات قلوبنا ، خلال خواطر الرياح ، نحو مستقبل مجهول ، مجهول .

ويزيد العصيان من وحشة الصحراء . كانت ليالي رأس جوبي تتقطع من ربع الساعة الى ربع الساعة بما يشبه دقة الساعـة الجدارية : الديدبانات يتنادى كل جارين منها بصيحة منتظمة . كان الحصن الاسباني ، الضـائع في منطقة ثائرة ، يحمي نفسه على هـذا النحو من الاخطار التي لا تظهر وجهها أبداً . ونحن ، مسافرو هذا المركب الاعمى ، كنا نصيخ الاذن الى ذلـك النداء يتضخم كلما اقترب ويرسم حولنا دوائر واسعة كأنه طيور البحر .

ومع ذلك فقد احببنا الصحراء .

اذا كانت لا تبدي بادىء بدء إلا جانب الفراغ والصمت فلأنهـا لا تهب نفسها لعشاق عابرين ، لعشاق يوم واحد . قرية بسيطة من قرانا تفعل مثـل ذلك ، تصدُّ . فاذا لم نهجر الدنيا كلها لاجل عينيها ، اذا لم ندخل تقاليدها،

اعرافها ، منافساتها ، جهلنا كل شيء عن الوطن الذي كانته لبعض الناس . اكثر من هذا ، مثـال ذلك الانسان الذي يتمترس وراء أسوار بيته ، على بعد خطوتين منا ، ويحيا وفق قواعد نجهلها نحن . انـه يطل حقاً من ذرى وحـدة تيبتية ، من مطرح في الارض قصيّ ، قصيّ حتى ان أي طائرة لا تستطيع ان تبلغنا اياه . فيم رواحنا لزيارة صومعته ؟ انها خالية . ان مملكة الانسان دنيا داخلية . وهكذا الصحراء انها ليست مصنوعـة من رمال أو طوارق[1] او حتى من مغاربة مدججين بالبنادق ..

ولكن ، ها نحن اولاء قد احسسنا الظمأ . وهذه البئر التي كنا نعرف ، نكتشف اليوم وحسب انها تشعشع على المدى . ان امرأة غير مرئية تستطيع كذلك ان تسعد منزلاً بأكمله . وبئر منسية قد تحملك بعيداً مثل محبة دافقة .

تبدو الرمال من اول وهلة قفراء ، ويأتي يوم نخاف فيها من غزوة وشيكة واذا نحن نقرأ الغزوة في طيات دثارها العظيم ، الغزوة هي ايضـاً تغير وجه الرمال .

لقد قبلنا قواعد اللعبة ، واللعبة تشكّـنا على صورتها . الصحراء تظهر في انفسنا نحن، والدنو منها ليس قط زيارة نزورها للواحة ولكنه عبادة لينبوع.

٢

من اول رحلة عرفت طعم الصحراء . كنا «ريغيل» و «غيوميه» وأنا ، قد سقطنا غير بعيدين من حصن نواتشوت . هذا المركز الصغير في موريتانيا كان وقتئذ لا يزال منعزلاً عن كل حياة مثل جزيرة ضائعـة في البحر . وكان رقيب شيخ يحيا فيه مع خمسة عشر سنغاليـاً . ولقينا كأننا رسل يهبطون عليه من السماء :

---

(١) من البربر الذين يترحلون في منطقة الصحراء .

ـ آه ! لست أدري ما احسُّ من خير وانا اكلمكم .. آه ، ما اكثر ما احسُّ من سرور !

لقاؤنا يسرُّ على نحو لا يستطيع التعبير عنه : ويبكي .

ـ انتم اول من ارى منذ ستة اشهر . الستة اشهر التي تفصل بين قدومين للتموين التي يحضرها الملازم مرة والنقيب مرة أخرى . آخر مرة كان النقيب هو الذي قدم ...

وكنا لا نزال في بحران السقوط . فعلى بعد ساعتين من داكار ، حيث يطبخ غداؤنا ، انفجرت أداة الحركة فتغير مصيرنا . واذا نحن نقوم بدور الملائكة الذين يظهرون .. لهذا الرقيب الشيخ الذي يبكي .

ـ آه ! اشربوا ما اشد ما يبهجني ان اقدم الخمر ! فكروا قليلا ! لما مرّ بي النقيب لم يكن عندي ما اقدمه اليه ، ولا كأس .

لقد سبق لي ان رويت هذا في احد كتبي ، ولكنه لم يكن من قبيل الرواية . وقال لنا :

ـ آخر مرة لم استطع حتى ان أقرع الكأس .. وبلغ بي الخجل مبلغاً طلبت معه نقلي .

يقرع الكأس ! يشرب على صحته انسان آخر يقفز عن صهوة هجينه وهو يتصبب عرقاً ! ستة أشهر عشناها من أجل هذه اللحظة . منذ شهر ونحن نلمع أسلحتنا وننظف المركز من قبوه حتى عليته . ومنذ بضعة ايام ، وقد أحسسنا بدنو اليوم المبارك الموعود ، نشرئب الى الافق من أعلى السطح من غير ان يعترينا كلال او ملل ، علنا نكشف هذاك الغبار الذي تشتمل به كوكبة « أتار » حينما تظهر في البعيد ..

ولكن الخمرة تعوزنا . نحن لا نستطيع الاحتفال بالعيد . نحن لا نقرع الكأس . نحن نبوء بالخزي والعار ..

ـ ما اشد ما أودُّ حضوره في اسرع وقت ممكن . انا في انتظاره ..

– اين هو يا رقيب ؟
فقال الرقيب وهو يشير الى الرمال :
– من يدري ، ان النقيب في كل مكان !

وكانت واقعاً،تلك الليلة التي قضيناها على سطح الحصن ونحن نتحدث عن النجوم . لم يكن لنا شيء نراقبه سواها . كانت كاملة ، مثلها في الطائرة ، ولكنها هنا ثابتة .

في الطائرة ، عندما يكون الليل مفرط الجمال ، تدع الحبل على الغارب ، ولا تعود تقود الطائرة التي لا تلبث شيئاً فشيئاً ان تميل الى اليسار . وتخالها لا تزال أفقية واذا انت تكتشف تحت الجناح الايمن قرية . ولكن ليس في الصحراء قرى . اذن فهو اسطول صيد صغير في البحر . ولكن في عرض الصحراء لا يوجد اي اسطول صيد . اذن ؟ وتبتسم انت للخطأ الذي وقعت فيه ، وتعتدل بالطائرة اعتدالاً رفيقاً ، فتعود القرية الى مكانها . وتعود انت الى تعليق المجرّة التي كنت اسقطتها بجن طائرتك . قرية ؟ أجل . قرية نجوم . ولكنك هنا ، من أعلى سطح الحصن ، لا ترى إلا صحراء كأنها متجمدة ، إلا أواذيّ من الرمال لا حركة فيها . ومجرّات معلقة تعليقاً متيناً . والرقيب يكلمنا عليها :
– روحوا ! انا اعرف جهاتي جيداً ... يمم هـذه النجمة تصل رأساً الى تونس !
– هل انت من تونس ؟
– لا ، ابنة عمي .

وساد صمت مديد . ولكن الرقيب لا يجرؤ على ان يخبىء عنا شيئاً :
– سأذهب الى تونس ذات يوم ، حتماً ، ولكن متخذاً طريقاً غير طريق هذه النجمة المستقيم،هذا اذا لم تُسلِمْه بئر مهجورة– ذات يوم وهو ماضٍ في مهمة – الى شاعرية الهذيان .. واذا النجمة وابنة العم وتونس تختلط بعضها

ببعض ويبدأ حينئذ ذلك السير الملهم الذي يحسبه الكافرون اليماً .

– طلبت مرة الى النقيب ان يمنحني اذناً حتى اذهب الى تونس ، اصل ابنة العم تلك فأجابني ..

– فأجابك ؟

– أجابني : « الدنيا تطفح ببنات العم » . وارسلني الى داكار كما لو كانت هذه أقرب .

– هل كانت جميلة ابنة عمك ؟

– ابنة العم التي في تونس ؟

– لا ، التي في داكار ؟

ايها الرقيب كدنا نثب لعناقك على جوابك المكتئب ، الغاضب بعض الشيء :

– كانت زنجية ...

وما الصحراء عندك ايها الرقيب ؟ ربٌ ابديٌّ الزحف عليك . وهي ايضاً عذوبة ابنة عم شقراء خلف خمسة آلاف كيلومتر من رمل .

وما الصحراء عندنا ؟ انها هذا الذي يولد فينا ، هذا الذي كنا نتعلمه عن انفسنا . نحن ايضاً كنا ، تلك الليلة ، نهيم حباً بابنة عم ونقيب ..

٣

لم تكن « بورت إيتيين » ، الواقعة على تخوم المناطق الثائرة ، مدينة بمعنى الكلمة . انك تجد فيها حصناً ومستودع طائرات وكوخاً من الخشب يأوي اليه ملاحو شركتنا . واما الصحراء التي تكتنفها من كل جانب ، فهي شاسعة ، مطلقة ، حتى ان « بورت إيتيين » ، على الرغم من مواردها العسكرية الضعيفة ، تكاد تكون حصناً لا يقهر . فمهاجموها يجب عليهم ان يعبروا اليها نطاقاً من الرمل والنار شديداً ، حتى ان الغزوات ، ولو بلغتها، لا تبلغها إلا وهي في الزمن الاخير قد استنفدت احتياطها من الماء . وعلى الرغم

من هذه المنعة الطبيعية ، لا تخلو ذاكرة الناس من غزوة تزحف على سانت إيتيين في مكان ما شمالاً . وكلما وفد علينا القائد حاكم المنطقة ليشرب كأساً من الشاي أرانا مسير الغزوة على الخرائط ، مثلما تروي اسطورة اميرة من حسان الاميرات . ولكن هذه الغزوة لا تصل ابداً ، تنصب في الرمل ذاته، مثل نهر ، ونطلق عليها نحن اسم الغزوة الشبح . وتهجع القنابل اليدوية والطلقات التي توزعها علينا « الحكومة » مساء عند اقدام أسرتنا ، في صناديقها ، ولا يعود علينا ان نقارع إلا عدداً واحداً هو الصمت الذي نتوقاه قبل كل شيء ببؤسنا . ولا يصنع « لوكا » ، رئيس الميناء الجوي ، ليل نهار ، إلا ان يدير الحاكي الذي يكلمنا ، بعيداً جداً عن الحياة ، كلاماً يكاد يضيع نصفه ، كلاماً يثير في النفس كآبة لا هدف لها تشبه الظمأ شبهاً غريباً .

ذلك المساء تعشينا في الحصن وطاف بنا القائد الحاكم في حديقته البديعة . والواقع انه تلقى من فرنسا ثلاثة صناديق ملآى بالتراب الحقيقي ، يعني انها سافرت في رحلة من اربعة آلاف كيلومتر . كانت ثلاث درقات خضراء قد نبتت ، فرأينا انفسنا نربتها بالاصابع كأنها النادر من الحلى . وعندما يتكلم القائد عليها يقول : « انها حديقتي » . وعندما تهب سافيات الرمل التي تبعث الجفاف بكل شيء كانوا ينزلون بالحديقة الى القبو .

وكنا نسكن على بعد كيلومتر واحد من الحصن ، ونعود الى مأوانا تحت ضوء القمر بعد العشاء . ان الرمل تحت القمر أزهر اللون . ونحن نحسُّ املاقنا ولكن الرمل ازهر . ولكن نداء الديدبان يعيد الى العالم رحانيته . انها الصحراء كلها التي تخاف من ظلالنا والتي لا تكفُّ عن سؤالنا لأن غزوة تزحف .

في صيحة الديدبان ترن اصوات الصحراء كلها . الصحراء لم تعد منزلاً خاوياً لأن قافلة مغربية تغنط الليل .

ربما كنا قادرين على أن نحسبنا في امان ، ومع ذلك ! مرض ، طارىء ،

غزوة ، ما اكثر الاخطار التي تعسعس ! الانسان على الارض محجّة يطلق عليها رماة خفيون . ولكن الديدبان السنغالي ، مثل فيّ ، يذكرنا ذلك .

ونجيب : « فرنسيون ! » ونمر امام الملاك الاسود . ونتنفس خيراً . يا للنبالة التي يثيرها فينا هذا الانذار .. وانه لانذار ممن في البعد ، غير ماثل ، نهنهته الرمال نهنهة : ولكن العالم به لم يعد هو نفسه . فالصحراء تعود كرة اخرى عظيمة مهيبة . ان غزوة تزحف من مكان ما ولا تصل ابداً صنعت قدسيتها .

الساعة الآن الحادية عشرة مساءً ، و « لوكا » يعود من مركز اللاسلكي ويعلن لي ان طائرة داكار ستهبط في منتصف الليل ، وان كل شيء فيها على ما يرام ؛ وفي هذه الاثناء يكون قد تمّ نقل البريد الى طائرتي التي سأقلع بها الى الشمال في الدقيقة العاشرة بعد منتصف الليل . وكنت أحلق لحيتي امام مرآة مشعوبة ، وبين حين وآخر أمضي حتى الباب، والمنشفة الاسفنجية حول عنقي ، انظر الى الرمل العاري : الطقس جميل ، ولكن الريح قد سكنت . وأعود الى المرآة . وأفكر . ان ريحاً تستمر اشهراً اذا هي سكنت افسدت أحياناً السماء كلها . وهأنذا ادخل نفسي في ثيابي كيفما اتفق : مصابيح الاغاثة معقودة في نطاقي ، مقياس الارتفاع ، اقلامي . وأنا ذاهب أرى «نيري» الذي سيكون تلك الليلة لاسلكيّ في الطائرة . وهو يحلق ذقنه ايضاً . وأقول له : « على ما يرام ؟ » أجل كل شيء على ما يرام في هذه اللحظة على الاقل . ان هذه العملية التمهيدية هي أسهل عمليات الطيران . ولكني اسمع صريراً ، وآنسة[1] تصطدم بمصباحي . ومن غير ان ادري لذلك سبباً مست شغاف قلبي .

وأخرج مرة وانظر : كل ما حولي نقي ، صاف . وصخرة شامخة على

---

(١) هي ما تسميه العامة كز الحرير .

كنف المكان تشع على صفحة السماء كأن الوقت نهار . ويسود الصحراء صمت منزل حسن الترتيب. ولكن ، ها هي ذي فراسة خضراء وآنستان تصدمان مصباحي. ومرة اخرى استشعر احساساً اصم ، قد يكون فرحاً، قد يكون خشية ولكنه ينبعث من اعماق ذاتي وهو لا يزال غامضـاً ، يملن عن نفسه على استحياء وقد لا يفعل . وبدا لي ان احداً يكلمني من مكان قصي جداً . أهذه هي الغريزة ؟ وأخرج ايضاً : سكنت الريح تمامـاً . الطقس لا يزال رطيباً . ولكني تلقيت إخطاراً . واعرف او يخيل إليّ اني اعرف ما انتظره: أأنا على صواب ؟ لا السماء ولا الرمل اشارا إليّ أية إشارة ؛ ولكن آنستين كلمتاني وفراشة خضراء ايضاً .

وأصعد كثيباً وأجلس ميمماً الشرق . اذا كنت على صواب فإن « هذا » لن يتأخر طويلاً . عمّ عسى أن تبحث هـــذه الهوام ، هنا على مئات الكيلومترات من واحات الداخل ؟

ان انقاضاً تحملها الامواج الى الشاطىء تنبىء عن ان إعصاراً يعصف في البحر . وكذلك فإن هذه الهوام تنبئني عن ان عاصفة رملية تزحف الآن ؛ عاصفة من الشرق أزعجت عن كروم النخيل فراشاتها الخضراء . ها هو ذا زبدها يصل اليّ ، يلامسني . وتهب ريح الشرق ، مهيبة لأنها تهديدٌ وازنٌ ، مهيبة لأنهـا حبلى بعاصفة . وان تنهدها لا يكاد يبلغني إلا هيناً رفيقاً . أنا التخم النهائي الذي يَلحسه الموج . على بعد عشرين متراً ورائي ما كان شراع لَيرعَشَ قطّ ، ولكن لفحها غلّفني مرة ، مرة واحدة ، بدعاب كان يخيل انه ميت . ولكني اعلم علم اليقين ان الصحراء ، خلال الثواني القليلة القادمة ، ان الصحراء مستأنفة تنفسها وانها ستطلق تنهدتها التالية ، وان كمّ الهواء [1] على مستودع طائراتنا لا يلبث بعد ثلاث دقائق ان يعاود خفقانه ، ولا نلبث ان نقلع في هذا اللهيب ، في هذا المآب لنيران الصحراء .

ولكن ليس هذا الذي أثارني . ان مـا افعمني من فرح غريب هو كوني

(١) الكم الذي يشبه شبكة السلة في ملعب كرة السلة ، والذي ينبىء عن اتجاه الريح .

فهمت باشارة خفية هذه اللغة ، هو كوني تشمّمتُ الاثر مثل انسان ابتدائي فيه يتجلى المستقبل كله بنأمات رفيقة ، هو كوني قرأت ذلك النزقَ في خفق أجنحة فراشة .

٤

كنا ههنا على اتصال بالمغاربة الذين لم يخضعوا . وكانوا يبرزون من أعماق الاراضي المحرقة ، هذه الاراضي التي كنا نجتازها في طيراننا ؛ ويغامرون فيذهبون الى حصني جوبي او سينيروس لشراء الخبز السكري او الشاي ، ثم يعودون الى الغوص في قرارة لغزهم . وكنا نحاول ، اثناء مرورهم ، ان نستأنس بعض افراد منهم .

فاذا كان الامر يتعلق برؤساء منهم ذوي نفوذ ، حملناهم احياناً في طائراتنا ، بالاتفاق مع ادارة الخطوط ، لكي نريهم العالم . وكان الهدف من ذلك ان نخمد من كِبَرهم ، ذلك لأنهم كانوا يذبحون الاسرى لأنهم أميل الى احتقارهم منهم الى كراهيتهم . وكانوا اذا صادفونا على تخوم الحصون لا يتنازلون حتى لتسميتنا . كانوا يشيحون عنا ويبصقون . وهذا الكبر كانوا يستمدونه من توهم قوتهم . كم من فرسانهم اعاد على مسمعيّ بعد أن جيّش للحرب جيشاً من ثلاثمائة بندقية : « انكم في فرنسا ذوو حظ عظيم ، لانكم على مسيرة مائة يوم من هنا .. »

اذن فقد كنا نتزههم ، وقد حدث ان ثلاثة منهم زاروا ، في احدى هذه النزهات ، فرنسا المجهولة تلك . كانوا من عِرق اولئك الذين رافقوني مرة الى السنغال فبكوا حينما عرفوا الاشجار .

ولما عدت ازورهم في مضاربهم كانوا يشهدون مجموعة للرقص والغناء ونسوة عاريات يرقصن بين الازهار . ها هم اولاء رجال لم يروا حياتهم شجرة او ينبوعاً او وردة ، رجال يعرفون ، عن طريق القرآن وحده ، ان هنالك جنات تجري من تحتها الانهار لانهم بهذا يعرفون الفردوس . وهم لا يظفرون

بهذا الفردوس وحوره العين إلا لقاء موت مرير على الرمال ببندقيـة كافر ، بعد ثلاثين سنة من شقاء . ولكن الاله ... لا يسأل الفرنسيين الذين اغدق عليهم كل هذه الكنوز، لا ضريبة عن الظمأ الحرق، ولا جملاً عن الموت. ومن اجل ذلك فان الشيوخ الرؤساء يحلمون الآن . ومن أجـل ذلك ، وبعد ان يطيلوا التفكّـر في الصحراء المجدية التي تمتد من حول خيامهم والتي لا تقدم لهم، من المهد الى اللحد ، إلا مباهج هزيلة ، يدعون لانفسهم ان تبوح بأسرارها :

ـ أتعـلم .. ان ربّ الفرنسيين .. انه أجود على الفرنسيين من ربّ المغاربة على المغاربة !

وقبل بضعة اسابيع كانوا ينزهونهم في السافوى ، ومضى بهم دليلهم امام شلال ثقيل هو أشبه الاشياء بعمود مجدول يهدر ، وقال لهم :

ـ تذوقوا .

وكان ما أذاقهم اياه ماءً عذباً . الماء ! كم يوم مسير يجب على الانسان هنا ان يقطع حتى يستطيع ورود أقرب الآبار ، فاذا وجده كم ساعة يجب ان ينفق في حفر الرمل الذي ملأه حتى يصل الى طين مختلط ببول الابل ! الماء ! ان الاطفال المغاربة، في رأس جوبي ، في سينيروس ، في بورت إيتيين، لا يسألونك مالاً .ولكنهم يحملون في أيديهم علب محفوظات فارغة يسألونك بها ماءً :

ـ اعط قليلاً من الماء ، اعط ..

ـ اذا كنت عاقلاً .

الماء الذي يساوي وزنه ذهباً ، الماء الذي تسحب أقل قطرة منه الشرارة الخضراء لطرة عشب . فاذا امطرت السماء في مكان مـا حركتِ الصحراء هجرة كبرى . القبائل تشد الرحال نحو العشب الذي يطلع على بعـد ثلاثمائة كيلومتر .. وهـذا الماء الشحيح الذي لم تسقط قطرة منه على بورت إيتيين منذ عشرة أعوام ، يهدر هنالك ، كأنه صهريج قد بُقِرَ ، فيبدو ما ادخره العالم كله . وقال لهم دليلهم :

ـ لنمض .

ولكنهم لم يتحركوا من موقفهم ذاك :

ـ دعنا أيضاً ..

ولبثوا صامتين يتأملون ذلك المسيل العظيم متجهمين ، خرساً . ان ما كان ينهمر هكذا ، خارج بطن الجبل ، هو الحياة ، هو دم الناس ذاته . وان دفق ثانية واحدة لقمين ان يحيي موات قوافل برمتها ، قوافل أثملها الظمأ فغاصت الى الابـد في لانهاية بحيرات الملح والسراب . ههنا كان الله يتجلى : من ذا الذي يدير ظهره . الله يفتح خزائنه ويبدي قدرته : ويظل المغاربة الثلاث في موقفهم ذلك لا يريمون .

ـ ما عسى ان تشاهدوا اكثر مما شاهدتم ؟ تعالوا ...

ـ يجب الانتظار .

ـ انتظار ماذا ؟

ـ النهاية .

كانوا ينتظرون الساعة التي يتعب فيها الاله من جنـَّتِهِ . ما اسرع ما يندم . انه ضنين .

ـ ولكن هذا الماء يسيل منذ ألف عام !..

ولم يلحوا ذلك المساء على مسألة الشلال . خير للانسان ان يُخْفِتَ ما تثيره بعض المعجزات . بل خير له ان يكف عن الامعان في التفكير فيها وإلا امتنع عليه ان يفهم من بعد اي امر . وإلا تسلل اليه الشك بالله ..

ـ رب الفرنسيين ، أرأيت ..

ولكني اعرفهم جيداً هؤلاء الاصدقاء البرابرة. انهم، هنا ، مزعزع ايمانهم، شعث النفوس ، يوشكون منـذ الآن ان يخضعوا . وهم يحلمون ان يُمِدَّهُمُ الفرنسيون بالشعير ، وان تحفظ قطعاتنا الصحراوية عليهم امنهم . وكان صحيحاً انهم متى ما خضعوا يربحوا خيرات مادية .

ولكن الثلاثة تجري في عروقهم دمـاء المأمون امير الطرارزة (أحسب اني أخطىء في اسمه) .

عرفت هذا الانسان لما كان من عمالنا . كان يستقبل في الحفلات الرسمية لما أداه من خدمات ، وقد اغدق عليه الحكام فاستغنى ، ووقرته القبائل ، لم يكن يبدو انه ينقصه شيء من الخيرات الملموسة . ولكن ذات ليلة ، ومن غير ان تصدر عنه اية إشارة تنبىء عما اعتزمه ، ذبـح الضباط الذين كان يرافقهم في الصحراء ، واستولى على الابل وانضم الى القبائل التي لم تخضع .

ويسمونها خيانات هذه الانتفاضات المفاجئة ، هذه الألوان من الهروب ، التي تمتزج فيها البطولة باليأس ، يقوم بها رئيس هو بعد اليوم مطارد ملاحق في الصحراء ، هذا المجد الذي لا يلبث ان ينطفىء ، مثـل الشهاب ، ان يتكسر على سدّ كوكبة سيارة من جند «أتار» . انهم ليدهشون من نوبات الجنون تلك .

ومع ذلك فقصة المأمون كانت قصة كثير من العرب غيره . كان يشيخ . وعندما يشيخ المرء يتأمل . وهكذا فقد اكتشف ذات مساء انه خان ربّه ، وانه دنس يده حين وضعها في يد النصارى ووقـع معهم اتفاقاً اضاع بها كل شيء .

والحقيقة ما قيمة الشعير والسلام عنده ؟ محارب مسخ راعياً . ها هوذا يتذكر انه سكن صحراء حيث كلُّ ثنية من الثنايا غنية بأخطار تواريها ، حيث يغرز المعسكر المحارب ، الذي يتقدم في قلب الليل حراساً ساهرين ، حيث الانباء التي تروي تحركات الاعداء تجعل القلوب خفاقـة حول النيران الليلية . انه يتذكر طعم البحر اللجّي الذي اذا تذوقه الانسان مرة لم ينسه ابد الدهر .

وها هوذا الآن تائه في مدى مهـدأ خلا من كل تميز . الصحراء ، الآن وحسب ، صحراء .

لعله كان يُجِل هؤلاء الضباط الذين قتلهم من بعـــد ، ولكن حب الله ياتي اولاً .

– تصبح على خير مأمون .

– ليحفظك الله !

واندرج الضباط في اغطيتهم وقد تمددوا على الرمل كأنهم على طوْف يواجهون النجوم . وها هي ذي النجوم تدور وئيدة . سماء بأكملهـا تعين الوقت . وها هو ذا القمر ينحني على الرمال يحيله الله بحكمته الى عدم . ولا يلبث النصارى ان يناموا . وما هي إلا بضع دقائـــق حتى تنفرد النجوم وحدها بالضياء . حينئذٍ ، لكي تستعيد القبائـل المزعجة المستضعفة عظمتها الماضية ، لكي تعود الى غزواتها القديمة التي تشع بها وحدها الرمال ، يكفي ان تند صرخة واهنة عن هؤلاء النصارى الذين يغطون في نومهم .. بضـع ثوان أخرى ويولد مما لا يمكن تلافيه عالم جديد ..

ويُذبح الملازمون الوسيمون النائمون .

٥

دعاني اليوم ، في جوبي ، « كال » واخوه «ممان» وشربت الشاي معهما، تحت مضربهما . وينظر «ممان» اليّ في صمت ، وقد اسبل لثامه الازرق حتى شفتيه واحتفظ وجهه بحذر متوحش . « كال » وحده يكلمني ويقـــدم اليّ عالمه :

– مضربي ، إبلي ، نسائي ، عبيدي كلهم لك .

وينحني « ممان » على اخيه ، من غير ان يحول نظره عني ، وينبس بضع كلمات ثم يعود فيدخل في صمته .

ماذا يقول ؟

– يقول ان : « بونافوس سرق الف جمل من الرقيبات » .

هذا النقيب «بونافوس» ، وهو ضابط في هجانة كتائب «أتار» ، لا اعرفه. ولكني اعرف اسطورته المريضة التي شرّقت بين المغاربة وغربت . انهم يتحدثون عنه في غضب ، ولكن كما يتحدث المرء عن أحد الالهة . ان حضوره يهب الرمل قيمته . وقد برز هذه الايام ايضاً ، ولا احد يدري كيف ، في مؤخرة غزوات كانت تزحف نحو الجنوب ، وراح يسرق الابل بالمئات مضطراً الغزاة ، حتى ينقذوا كنوزهم التي كانوا يظنون انها في مأمن ، الى قتاله . واليوم وقد انقذ «أتار» بظهوره الملائكي ، وضرب خيام معسكره على اكمة كلسية عالية ها هوذا يلبث في مكانه قائماً ، مثل رهينة ماثلة للقبض عليها ، يشع اشعاعاً يضطر القبائل الى الزحف على سيفه .

وينظر «معان» اليّ نظرة أقسى ويتكلم مرة اخرى .

— يقول : «سنرحل غداً في غزوة نشنها على بونافوس . ثلاثمائة بندقية» .

وكنت قد توقعت امراً . هذه الابل التي يوردونها الآبار منذ ثلاثة ايام ، هذه الاجتماعات ، هذا الغليان . يخيل انهم يعدون شراعاً غير منظور ، وان ريح البحر التي ستمضي به بدأت تهب . ولأن بونافوس هناك فقد اصبحت كل خطوة الى الجنوب طافحة بالمجد . ولم اعد قادراً على الحكم : أينطوي على الكره مثل هذا الرحيل ، على بغض ام حب !

كان باهراً ان تملك في الدنيا عدواً جميلاً مثل هذا تذبحه . اينما يظهر تطوي القبائل خيامها وتجمع شمل إبلها وتهرب ، مرتعدة من لقياه وجهاً لوجه ، ولكن القبائل البعيدة يتملكها مثل دوار الوجد . انهم يقتلعون انفسهم من طمأنينة الخيام من وصال النساء ، من النوم الهني ، ويكتشفون ألا شيء في الدنيا يعادل — بعد شهرين من زحف منهك نحو الجنوب ، من ظمأ محرق ، من تربص يكونون فيه كامنين تحت عواصف الرمل — التي تقع ، فجأة ، مع الفجر ، على كوكبة «أتار» السيارة ، وذبح النقيب بونافوس ثمة بإذن الله .

ويعترف لي « كمال » :

— بونافوس قوي .

أنا الآن ملمّ تبسرّهم . ومثل اولئك الرجال الذين يشتهون امرأة ، يحلمون بخطوتها الخلّية اذ هي في نزهة ، ويتقلبون على مثل الجمر طوال الليل تثخن فيهم تحرقهم تلك النزهة الخلية التي تتابعهـا هي في احلامهم ، كذلك فانّ خطوة بونافوس النائية تقضّ مضاجع هؤلاء . هذا النصراني في ثياب المغاربة الذي صدّ الغزوات الموجهة ضده وهو على رأس هؤلاء المئتين من القرصان المغاربة ، قد تغلغل في قلب العصيان ، هنالك حيث يستطيع اصغر فرد من رجاله انفسهم ، بعد ان يخلع عنه الاغلال الفرنسية ، ان يفيـق من عبوديته ويضحي به ، من غير ان يخشى عقاباً ، على مذبح من المذابح الحجرية ، هنالك حيث صيته الذائع وحده هو الذي يقعد بهم عن ان يفعلوا ، وحيث ضعفه نفسه يوقع في قلوبهم الرعب . وها هوذا ، تلك الليلة ، في صميم نومهم الجاف، يمرُّ ويمرُّ خليّاً ، وخطوته ترنُّ فتبلغ حتى قلب الصحراء .

ويتفكر معان ، وهو لا يبرح مسمراً في صدر الخيمة ، مثل حفر نافر في غرانيت ازرق . عينـاه وحدهما تبرقان ، وكذلك خنجره من الفضة الذي ليس لعبة ابداً . ما أكثر ما تغيّر منذ ان انضم الى الغزو ! انه يحس ، كما لم يحس من قبل قط ، نبالة بكل تألقها ، ويطحنني باحتقاره ؛ ذلك لأنـه سيسير الى نزال بونافوس ، لأنه سيزحف ، مع الفجر ، يدفعه بغض له كل ملامح الحب .

ويميل مرة أخرى نحو أخيه ويتكلم بصوت خفيض جداً وينظر الي .

– ماذا يقول ؟

– يقول انه لا بد ان يطلق النار عليك اذا لقيك خارج الحصن .

– لماذا ؟!

– يقول : « انت تملك طائرات وأجهزة لاسلكي وبونافوس ولكنـك لا تملك الحقيقة » .

ان معان يحكم عليّ وهو من غير حراك متلفع بأغطيته الزرقاء ، التي تشبه طياتها تموج التمثال .

— يقول : « أنت تأكل الخس مثل العنزات ، والخنزير مثل الخنازير . نساؤك يبدين وجوههن من غير حياء » . لقد رآهن . يقول : « أنت لا تصلي ابداً » . يقول : « ما عسى ان تنفعك طائرتك ولاسلكيك وبونافوسك اذا لم تكن لديك الحقيقة ؟ »

ويفتنني هذا المغربي الذي لا يدافع عن حريته ، لأن الانسان في الصحراء حرٌ ابداً ، لا يدافع عن كنوز ترى رأي العين ، لأن الصحراء عارية ، ولكنه يدافع عن مملكة خفية . وفي صمت أمواج الرمل ، يمضي بونافوس بكوكبته مثل قرصان عتيق ، واذا هذا المعسكر في رأس جوبي مدين اليه بأنه لم يعد مأوى رعاة متعطلين . ان عاصفة بونافوس تنوء على جنبه ، وبسببه تُشَدُّ الخيام مساء . ما اكثر ما يقبض الصمت في الجنوب على القلب : انه صمت بونافوس ! ومعان ، الصياد القديم ، يصغي اليه اذ يسير في الريح .

عندما يعود بونافوس الى فرنسا لن يُسرَّ اعداؤه ، ولكنهم سيذرفون عليه العبرات الغزار كأن رحيله ينزع من الصحراء أحد قطبيها ، من وجودهم قليلاً من السمو . وسيقولون لي :

— وعلام يذهب بونافوسك ؟

— لا أعلم ..

لقد انزل حياته وحياتهم في مقامرة ، سنوات طويلة . صنع قواعد من قواعدهم . نام ورأسه متوسدٌ حجارتهم . وعرف اثناء طرادي الأبدي ، مثلما عرفوا ، ليالي كليالي التوراة مصنوعة من النجوم والريح . وها هو ذا يكشف بذهابه انه لم يكن يلعب لعبة تسوى العمر . انه يترك مائدة اللعب في خفة . والمغاربة الذين يدعهم يلعبون وحدهم يفقدون الثقة باحدى وجهات الحياة التي لا تجتذب الرجال وتزجهم في غمراتها حتى لب العظام . ومع ذلك فانهم يودُّون ان يؤمنوا به .

— بونافوسك : سيعود .

ـ لا أعلم .

يرى المغاربة انــه سيعود . لن تستطيع لُعَب اوروبا ان ترضيه ، لا البريدج الذي يلعبه جنود الحاميات ، ولا الترفيع ، ولا النساء . سيعود وقد ركبه هوس نبالته الضائعة ، الى هناك ، حيث كل خطوة يخفق لهــا القلب مثل الخطى في الدرب الى الحبيب . لقد ظنَّ انه مــا عاش هنا إلا مغامرة عابرة وانه سيجد الاساسي هناك ، ولكنه سيكتشف ، وقد غلبه الاشمئزاز ، ان الخيرات الحقيقية قد ملكها هنا ، في الصحراء : فتنة الرمــل ، الليل ، هذا الــسكون ، وطن الريح والنجوم هذا . ولو ان بونافوس عاد ذات يوم فلا بد للخبر ، منذ الليلة الاولى ، من ان يذيع في المنطقة المقاتلة كلهــا . ويعلم المغاربة انه ينام في مكان ما من الصحراء ، وسط المئتين من قرصانه ، فيوردون رواحلهم الآبار في صمت ويهيئون مؤونتهم من الشعير ويتفحصون البنادق يحفزهم في هذا كله ذلك الحب او ذلك البغض .

٦

ـ خبئني في طائرة الى مراكش ...

كل مساء ، في جوبي ، كان ذلك العبــد من عبيد المغاربة يتوجه إليَّ ، برجائه القصير . وكان ، بعد ان يبــذل في وسعه ليحيا ، يجلس على الارض وساقاه منضمتان ويعدُّ لي الشاي . وهو بعــد هذا هادىء وديع يوماً كاملاً اذ باح بسره ، في اعتقاده ، الى الطبيب الوحيد القــادر على شفائه ، وتوسل الى الرب القادر على انقاذه . وهو بعد هذا ينحني على ابريــق الشاي ويروح يجترُّ صور حياته البسيطة ، أراضي مراكش السوداء ، منازلهــا الوردية ، النعم القليلة التي حرمه الأسر منهــا . وهو لا يجد عليَّ صمتي او تمهلي في منح الحياة : لم أكن انساناً شبيهاً به ، ولكن قوةً تُحرّك ، شيئاً مثــل الريح المواتية التي ستهبّ في يوم من الايام على مصيره .

ومع ذلك فقد كنت انا الطيار البسيط ، رئيس رأس جوبي لبضعة أشهر ، الذي لا يملك إلا كوخاً مستنداً الى الحصن الاسباني ، وليس فيه إلا حوض وابريق ماء مالح وسرير أقصر مما ينبغي، كنت قليل الاوهام فيما يتصل بقدرتي :

– يا صاحبي «بارك» سنرى ..

كل العبيد يسمون «بارك» . كان يسمى بارك اذن . وعلى الرغم من اربعة أعوام من أسر لم يكن قد استسلم بعد : انه يذكر كونه ملكاً .

– ماذا كنت تعمل في مراكش يا بارك ؟

في مراكش ، حيث كان امرأته واطفاله الثلاثة لا يزالون يعيشون من غير شك ، كانت له مهنة رائعة .

– كنت سائق قطعان ؛ وكنت أدعى محمداً !

وكان الشيوخ هناك يستدعونه :

– عندي بقر للبيع يا محمد . اذهب واحضرها من الجبل .

أو يقولون :

– عندي ألف خروف في السهل ، اصعد بها الى أعلى ، الى المراعي .

ويتحكم بارك في هذا الرحيل وقد امتشق صولجاناً من الزيتون ! انه هو المسؤول الوحيد عن شعب من النعاج ، يخفف من غلواء اشدهن اسراعاً لأن حملاناً على وشك ان تولد ، ويحث هوناً ما الكسالى ، ويسير في ثقة الجميع وطاعتهن . انه الوحيد الذي يعرف الى أية فراديس موعودة كنّ يصعدن ، الوحيد الذي يقرأ دربه بين النجوم اذ اثقله علم لم يوزعه الله على رعيته وهو الذي يقرر وحده، بحكمته، ساعة الراحة ، ساعة ورود الينابيع. وهو الذي اذا جنّ الليل وهجعن وقف وقد عطفه حنان على كل هذه الغرارة الضعيفة التي يغوص في صوفها حتى الركبتين ، ورفع كفيه الى السماء ، هو الطبيب والعراف والملك ، وصلى من أجل شعبه .

ذات يوم جاءه أعراب :

– تعال معنا نأت بسائغة من الجنوب .

وجعلوه يمشي زمناً طويلاً ، وبعد ثلاثة ايام ، لما ألفى نفسه قد انطبق عليه شعب جبلي كالجُب ، على تخوم المناطق الثائرة ، وضعوا يدهم على كتفه بكل بساطة وعمّدوه « باركاً » وباعوه .

وعرفت عبيداً آخرين . كنت اذهب كل يوم الى المضارب أشرب الشاي. كنت اتمدد هناك ، حافياً ، على بساط من الصوف الفاخر الذي هو ترف البدو الرحل ، والذي يقيم عليه مسكنه بضع ساعات، واترشف رحلة اليوم. انك في الصحراء تحس انسياب الزمن . وتحت شواظ الشمس يزحف الكون نحو المساء ، نحو هاتيك الريح الطرية التي ستغمر الاعضاء وتغسل العرق كله. تحت شواظ الشمس يتقدم البهائم والناس ، نحو ذلك الورد المظيم في مثل ثبات الخطوة نحو الموت . وهكذا فالفراغ ليس بعبث ابداً ، وكل نهار يظهر جميلاً مثل هذه الدروب التي تذهب الى البحر .

وكنت اعرف هؤلاء العبيد . انهم يدخلون الخيمة عندما يخرج الشيخ من صندوق الكنوز الموقد والابريق والاقداح ، ذلك الصندوق الذي اثقلته الاغراض التي لا معنى لها : اقفال من غير مفاتيح ، مزهريات ولا زهر ، ومرايا لا تسوي فلسين ، اسلحة قديمة ، اشياء اذا رميتها هكذا على الرمل ذكرتك بزبد سفينة قد غيّبها اليم .

حينئذ يحشو العبدُ الموقد بأعواد جافة من العشب وهو صامت ، وينفخ الجمر ، ويملأ الابريق ، ويُلعّب في اعمال الفتيات الصغيرات هذه عضلات قادرة على ان تقتلع سنديانة من جذورها . انه مسالم ، تستغرقه اللعبة : عمل الشاي ، العناية بالهجن ، الأكل . وتحت شواظ النهار زحف الليل ، وتحت صقيع النجوم تشوق الى شواظ النهار . سعيدة هي بلاد الشمال التي تؤلف لها الفصول ، في الصيف ، اسطورة للثلج ، وفي الشتاء اسطورة للشمس ، وتعيسة هي البلاد الاستوائية التي لا يتغير شيء كثير في مرجلها ، ولكن ،

سعيدة هي أيضاً هذه الصحراء التي يؤرجح فيها النهـار والليل الانسان بين مأمل وآخر .

في بعض الاحيان يقعي العبد الاسود أمام الباب ويترشف ريح المساء . في جسد الاسير الموقر ذاك تكفُ الذكريات عن ان تطفو . انه لا يـكاد إلا بالجهد يتذكر ساعة اختطافـه ، وتلك الضربات والصرخات وأذرع الانسان التي القتا به في ليله الحاضر . انه منذ تلك السـاعـة يغوص في سبات غريب وقد غدا كالأعمى محروماً من انهاره الوئيدة في السنغال ، محروماً من مدنـه البيضاء في الجنوب المراكشي ، محروماً كالأصم من الاصوات الاليفة . هـذا الأسود ليس تعيساً ، ولكنه عاجز. لقد سقط ذات يوم من مدار حياة البدو الرحل ، اوثـــق الى هجرانهم ، انشـد ُعمرُهُ الى المدارات التي يرسمونها في البوادي .. فما عسى ان يبقى له بعد هذا مما يشج بينه وبين ماضيه، مأواه ، امرأته ، اطفاله الذين يأتوا بالنسبة اليه أمواتاً في الأموات ؟

الناس الذين عاشوا زمنـاً طويلا على حب عظيم ، ثم حرموا منه يتعبون احياناً من نبالتهم المتوحدة ، فيدلفون متواضعين من الحياة، ومن حب عادي. لقد وجدوا عذوبة في الاذعان ، في العبودية ، في الدخول في سلام الأشياء . ان العبد يتخذ من جمر السيد زهوه ودلاله .

ويقول الشيخ أحياناً لاسيره :

ــ هاك ، خذ .

هذه هي الساعة التي يكون فيها السيد طيباً مع العبـــد لأن فيها يضع التعب والشواظ اوزارهما ، ولأن العبد والسيد كليهما يدخلان في طراوة المساء جنباً الى جنب . وهو يمنحه كأساً من الشاي ، فيوقر العبـد بالعرفان حتى يستقبل ركبتي سيده . والعبد الرقيق لا يقيد بالسلاسل والأغلال أبـداً . ما أقل ما يحتاجها ! ما اشد ما هو مخلص ! ما عليه إلا ان يتعقل فينكر الملك الأسود الذي خلع عن ملكه حتى يكون لا شيء إلا أسير هانىء .

ومع ذلك فسوف يطلق ذات يوم سراحه . عندما يمسي أشد هرمـاً من

ان يسوى غذاءه أو ثيابه يهبونه حرية لا حد لهـا . ويظل ثلاثة ايام يعرض نفسه خلالها عبثاً من مضرب الى مضرب ، وكل يوم يزداد وهناً وضعفاً ، حتى كان اليوم الثالث دلف الى الرمل وديعاً دائماً وتمدد عليه . ولقد رأيت عبيداً في جوبي يموتون هكذا عراة . وكان المغـاربة يمرون بهم وهم في احتضارهم الطويل من غير ان يقسوا عليهم ، وصغار المغاربة يلعبون قريباً من هــذا الحطام القاتم ، وكلما طلع الفجر يركضون ليروا ، من قبيل اللعب ، ما اذا كان الحطام لا يزال يتحرك ، ولكن من غير ان يضحكوا من الشيخ الخادم القديم . كان هذا في النظام الطبيعي للأشياء . كان شيئاً يشبه ان تقول له : « لقد اشتغلت جيداً ولك حق النوم فاذهب ونم » . وأمـا هو ، فيحس الجوع ، في استلقائه المديد ذاك ، الذي لا يخرج عن كونه نوعاً من الاغماء ، ولكنه لا يحس الجور الذي لا يعذبه إلاه . ورويداً رويداً يمتزج بالأرض . ثلاثون سنة من عمل ، ثم هذا الحق في النوم على الارض .

أول من لقيت من هؤلاء الارقاء لم اسمعه يئن : يئنُّ ممن ! لعلّي انما حدست لديه نوعاً من الرضى الغامض ، رضى ذلك الجبلي الضائع بين الشعاب المتجمدة وقد انهدت منه القوى فرقد في الثلج ، وتلفع في احلامه وفي الثلج. ولم يكن عذابه هو الذي روعني . لا أظن ذلـك . ولكن في موت انسان يموت عالم مجهول ، فكنت أسائلني عن كنه الصور التي كانت تغيم فيه . أية نباتات من السنغال ، أية مدائن بيضـاء من الجنوب المراكشي كانت تغوص رويداً رويداً في لجج النسيان ! ولم أكن قادراً على ان اعرف أكانت تنطفىء في هذه الكومة السوداء مجرد هموم تعيسة : الشاي الذي كان ينتظر الاعداد، السائمة التي يجب إيرادها الماء .. أهي روح العبد تلك التي تستسلم للكرى أم ان الانسان هنا قد بعثته فورة من الذكريات بعثـاً جديداً فأنشأ يموت وهو في سدرة عظمته ! كانت عظمة الجمجمة الصلبة أشبه عندي بصندوق الكنوز القديم . ولم أكن ادري اي حرير من الألوان ، اية صور أعياد ، أية انقاض لا جدوى منها ، هنا في هذا القفر ولا نفع ، قد سلمت من هذا الغرق .

كان ذلك الصندوق هنا ، مقفلاً ، ثقيلاً . لم أكن اعلم اي شطر من العالم كان يتبعثر في الانسان خلال هذا السبات الجبار ، سبات ايامه الأخيرة ، يتبعثر في هذا الوجدان وهذا اللحم ، اللذين يستحيلان مرة اخرى ، رويداً رويداً، الى ليل وجذر .

ـ كنت سائق قطعان ، وكنت أدعى محمداً ..

كان «بارك» اول اسير اسود عرفته يقـاوم . ولم تكن تقتصر بسواه على ان المغاربة قد اغتصبوا حريته ، انهم جعلوه في يوم واحـد اشد عرياً على الارض من طفل وضعته امه لتوها . ذلك ان لله عواصف تذرو ، هكذا ، في ساعة واحدة بيادر شامخة شقي فيها انسان . ولكن المغاربة كانوا يهددونه تهديداً يستهدف ما هو اشد عمقاً من ماله، كانوا يهددونه في شخصيته. ولم يكن «بارك» يتنازل قط ، بينما كثير من الأسرى غيره لم يبالوا ان يموت فيهـم سائق السائمة البائس ، الذي يكدح طول السنة ليقيم أوده !

لم يُقِـمْ «بارك» في العبودية مثلما يقيم انسان اوهنه الانتظار ، في هناءة نَصَف . لم يشأ ان يصنعه افراحه عبداً من حسنات سيد العبيد وألطافه . كان يحتفظ لمحمد الغائب بذلك المنزل الذي سبق لمحمد ان سكنه في صدره . ذلك المنزل الحزين لكونه خاليـاً ، ولكنه المنزل الذي لم يسكنه احد آخر ابد الدهر . وما كان اشبه « بارك » بذلك الحارس الذي وخطه الشيب ، في اعشاب مدارب الحديقة وفي ضجر الصمت ، ومات من اخلاص .

لم يكن يقول : « انا محمد بن الحسين » ، ولكن : « كنت ادعى محمداً »، حالماً بأن هـذه الشخصية المنسية ستبعث ذات يوم فتطرد ، لمجرد انبعاثها ، العبد الظاهر . في بعض الاحيان كانت ذكرياته جميعها ترتـد اليه ، في صمت الليل، في مثل صفاء اغنية الطفولة وامتلائها . وكان يروي لنا مترجمنا المغربي فيقول : « في موهن من الليل تكلم على مراكش وفي موهن من الليل ذرف العبرات » . لا احد يستطيع في هـذه الوحدة ان يفلت من هذه الأوبات . كان الآخر يستيقظ فيه ، من غير ان يؤذن بحضوره ، يتمطى في اعضائـه

ذاتها ، يبحث عن المرأة الى جانبه ، في هذه الصحراء التي لا تدنو منهـا اية امرأة ، يصغي الى وسوسة ماء الينابيع ، حيث لا ينساب اي ينبوع . ويغمض «بارك» عينه، وتشط به الخواطر فيخيل اليه انه يقطن منزلاً ابيض، راسياً كل ليلة تحت النجمة ذاتهـا ، هنالك حيث يسكن الناس منازل من الوبر ويلاحقون الريح . هذه اللواعج ، التي استيقظت على نحو غامض خفي ، كما لو كان قطبها ادنى اليه من حبل الوريد ، تثقل على « بارك » فيهرع إلي . كان يودُّ ان يقول لي انه على اهبة ، إن لواعجه كلها على أهبـة ، وان ليس لديه لتخفيفها إلا العودة الى وطنه . ويبتسم بارك ويدلني على الحيلة التي بَيَّتها ولم تخطر لي انا الخليّ على بال من قبل :

– غداً البريد .. ستخبئني في الطائرة الى أغادير .

– يا « بارك » ايها الصديق المسكين !

ذلك اننا نعيش في منطقة عاصية فكيف نقدر على إعانته على الهروب ؟ لو فعلنا لانتقم المغاربة بمذبحة لا يدري مداها إلا الله على هذا الخطف والاهانة اللذين لحقا بهم . وقـد كنت جهدت في سبيل شرائه وشاركني مسعاي ميكانيكيو المحطة «لوبيرغ»و«مارشال» و«وأبغرال» ولكن المغاربة لا يقعون كل يوم على اوروبيين يحرصون على شراء عبـد حرصاً شديداً ، فراحوا يستغلون رغبتنا :

– هذا حقه عشرون الف فرنك .

– أتهزأ بنا ؟

– انظر لي هاتين الذراعين القويتين اللتين له ..

ومرت اشهر على هذا النحو ..

واخيراً انخفضت مطالب المغاربة ، وساعدني بعض اصدقاء لفرنسا كنت كاتبتهم في ذلك ، فرأيتني قادراً على ان اشتري «بارك» الشيخ .

وكانت مفاوضات هائلة استمرت ثمانيـة ايام . وكانت تجري بين خمسة

عشر مغربياً وبيني ونحن جالسون في حلقة على الرمال. وكان صديق المالك، هو في الوقت ذاته صديقي. واسمه «زين ولد الراتاري» وصنعته قاطع طريق، يساعدني في الخفاء ، وكان يقول له وفق نصائحي :

– بعْـه، فإنك ستفقده على اية حال . انه مريض ، الداء لا يظهر بادىء الأمر ، ولكنه هنا في الداخــل . وتفتح عيناً وتغمض عيناً واذا هو ينفخه بغتة . بعه حالا الى الفرنسي .

وكنت وعدت قاطــع طرق آخر ، هو «راجي» ، بعمولة اذا اعانني في إبرام الصفقة .. فراح « راجي » يغريه قائلاً :

– سنشتري بحقه إبلاً وبنــادق وخرطوشاً ، وهكذا يكون في وسعك ان تذهب في غزوة وتشن الحرب على الفرنسيين . وهكذا تجلب من « أتار » ثلاثة ارقاء او اربعة كلهم جديد . صفـّ هذا الشيخ الكبير .

وباعوني «بارك» . اغلقت عليه باب كوخنا بالقفل والمفتاح ستة ايام ذلك لأنه اذا راح يطوف خارجها قبل مرور الطائرة فان المغاربة قادرون على أخذه وبيعه في مكان آخر .

ولكنني حررته من حال العبودية ، فأقيم حفــل لطيف . جاء الشيخ ؛ ومالك « بارك » السابق وابراهيم قائد جوبي . هؤلاء القراصنة الثلاثة الذين كانوا قادرين على ان يقطعوا رأسه لو انه غامر بالابتعاد عن الحصن مائة متر ، لا لشيء إلا ليسخروا مني ، عانقوه في حرارة ووقعوا عقداً رسمياً .

– انت الآن ابننا .

وكان ابني انا ايضاً بمقتضى القانون .

وقبـّل « بارك » آباءه جميعاً .

وعاش في كوخنا ، في أسر عذب ، حتى ساعة الرحيل .

كان يحملنا على ان نروي له عشرين مرة في اليوم الرحلة الهنية : ينزل من الطائرة في أغادير، فيعطونه في هــذه المحطة بطاقة سفر بالباص الى مراكش .

وكان «بارك» يتخذ سمات الانسان الحر ، مثلما يلعب طفل دور المستكشف: هذه الخطوة نحو الحياة ، هذا الباص ، هذه الجماهير ؛ هذه المدائن التي يوشك ان يراها كرّة أخرى ..

وجاءني «لوبرغ» موفداً من «مارشال» و«ابغرال». يجب ألا يموت «بارك» جوعاً عندما يصل الى مراكش . واعطوني ألف فرنك من اجل بارك . انه يستطيع ان يعثر هكذا على عمل .

ورحت افكر في سيدات الاعمال الخيرية اللواتي « يقمن بأعمال البر والاحسان » ، يعطين عشرين فرنكاً ويسألون عوضاً عنها شكراناً وعرفاناً . وأما لوبيرغ ومارشال وابغرال ، ميكانيكيو الطائرات ، فيعطون الفاً ، انهم لا يقدمون احساناً ولا يسألون عرفاناً . وهم لا يصدرون بعملهم هذا عن شفقة مثل تلك السيدات العجائز اللواتي يحلمن بالسعادة . كانوا يهيمون ، ببساطة ، في اعادة كرامة الانسان الى انسان . كانوا يعلمون اكثر مما ينبغي ، مثلما اعلم ، ان اول صديق امين سيهرع ، بعد ان تتبدد سكرة المآب ، الى لقاء بارك انما هو البؤس ، وانه لن تنقضي ثلاثة اشهر حتى تراه يشقى في مكان ما على خط السكة الحديدية في اقتلاع العوارض . سيكون أقل سعادة منه في الصحراء بيننا . ولكن كان له الحق في ان يكون هو ذاته بين ذويه .

— هلم بنا ايها الصديق بارك ، اذهب ، وكن رجلا .

كانت الطائرة ترتعد ، على أهبة الرحيل . وينحني بارك مرة اخيرة على وحشة رأس جوبي الشاسعة . وكان قد تجمع امام الطائرة مئتا مغربي احتشدوا ليروا جيداً أي سحنة يتخذها عبد وهوعلى ابواب الحياة. سيستعيدونه في مكان غير بعيد لو ان عطلاً طرأ على الطائرة .

وأومأنا مودعين هذا المولود الجديد الذي بـه من العمر خمسون عاماً ، وقد خالجنا بعض الحرج من ان نسلمه هكذا الى الدنيا المريضة .

— وداعاً يا بارك .

— لا .

– كيف : لا ؟
– لا . أنا محمد بن الحسين .

آخر اخباره حملها الينا عبد الله ، العربي ، الذي ساعد بارك في أغادير بناء على طلبنا .

وكان الباص لا يسافر إلا في المساء ، وهكذا وجد بارك امامه نهاراً كاملاً . بادىء الامر تشرّد وقتاً طويلاً في المدينة الصغيرة من غير ان ينبس فحدس عبد الله انه قلق فعطفه عليه حنان وقال له :
– ما بك ؟
– لا شيء ..

كان بارك في غمار تحرره المفاجىء ، لم يحس بعد بعثه. نعم ، كان يستشعر سعادة صماء ولكن اذا نحّيت هذه السعادة لم يعد هنالك فرق بين بارك العشية وبارك الغداة . ومع ذلك فهو منذ الآن يشارك ، على قدم المساواة ، الناس الآخرين في هذه الشمس ، وفي حق الجلوس هنا تحت عريشة المقهى العربي ذاك . وجلس ، وطلب شاياً لعبد الله وله . كانت هذه اول اشارة تصدر عن السيد الذي آل اليه ؛ كانت سيادته قمينة ان تغيره تغييراً. ولكن النادل صبّ له الشاي من غير ان تبدو عليه دهشة ، كأن ما يقوم به عمل عادي . لم يكن يشعر ، وهو يسكب الشاي ، أنه يحتفل بانسان حر . وقال بارك :
– لنذهب الى مكان آخر .
وصعدا نحو حي « القصبة » الذي يشرف على أغادير .

وهرع اليهما الراقصات البربريات الصغيرات . وأبدين من العذوبة الأليفة ما جعل بارك يميل الى الظن انه على وشك ان يخلق خلقاً جديداً : انهن ، هن ، اللواتي كن يرحبن به على عتبة الحياة من غير ان يدرين انهن يفعلن ذلك . واخذنه من يده وقدمن اليه الشاي ، في ظرف ولطافة ، ولكن مثلما

كن يفعلن لو انـــه كان شخصاً آخر . واراد بارك ان يروي قصة بعثه . وضحكن ضحكاً هنياً ، كن في حبور من أجله ، لانـه كان هو في حبور . وأضاف وفي همته ان يستثير اعجابهن ، ودهشتهن : « أنا محمد بن الحسين » . ولكن هذا لم يدهشهن قط . كل الناس لهم اسماء ، وكثير منهم يؤوبون من مطارح بعيدة جداً ايضاً . .

وجُرّ عبد الله مرة اخرى الى المدينة . وتسكع امام دكاكين اليهود ، ونظر الى البحر ، وخطر في باله ان يتمشى على هواه في اية وجهة تقودهـا اليها قدماه ، انه حر . . ولكن هذه الحرية تبدو له مُرة كالعلقم لأنها كانت تكشف له الى اي مدى قد تقطعت صلاته بالعالم .

حينئذ مر طفل فداعب بارك خده في لطف ، وابتسم الطفل . لم يكن هذا الطفل السيد يدلله العبيد ، كان طفلاً ضعيفاً وهبه بارك مداعبـــة ، وابتسم . وهذا الطفل ايقظ بارك ، فأحس بارك انه اشد أهمية على الارض ، بسبب هذا الطفل الضعيف الذي اثار هو ابتسامه . وبـدأ يستكشف شيئاً ما وراح يمشي بخطوات واسعة .

وسأل عبد الله :

— عم تبحث ؟

فأجاب بارك :

— لا شيء .

ولكن ، لما انتهى به سيره ، في عطفة احد الشوارع ، الى فريـق من الاولاد يلعبون ، توقف . ههنا ! نظر اليهم في صمت . ثم انـــه جنح نحو الدكاكين اليهودية وعاد مثقل الذراعين بالهدايا . وغضب عبد الله :

— احمق ، احتفظ بمالك !

ولكن بارك لم يعد يصغي الى احد . اشار الى كل منهم مقطب الاسارير ، جهماً . وامتدت الايدي الصغيرة نحو اللعب والاساور ، والخفـاف المخيطة بالذهب . وكان كل ولد بعد ان يحكم اطباق يديه على كنزه يفر كالمتوحش .

وبلغ النبأ اطفال أغادير الآخرين فتراكضوا نحوه : ألبسهم بارك الخفاف المذهبة . وتناهت الاشاعات الى اطفال آخرين في ضواحي أغادير فزحفوا هم ايضاً وهم يصيحون نحو الاله الاسود ، وتشبثوا بأثوابه العتيقة، اثواب الرقيق، وطالبوا بأنصبتهم . وانفق « بارك » كل ما يملك .

وظن عبد الله انه « مجنون من الفرح » . ولكني لا أظن ان المسألة عند بارك هي في انه يودّ ان يقتسم مع الآخرين قلباً طافحاً بالفرح .

كان يملك ، لانه حرّ ، الثروات الاساسية ، الحق في ان يتحبب الى الناس حتى يحبوه ، الحق في ان يسير نحو الشمال او الجنوب ، وان يكسب خبزه بعمله . فما عسى ان ينفعه هذا المال .. في حين انه يحس ، كما يحس الانسان جوعاً عميقاً ، الحاجة الى ان يكون انساناً بين الاناسي ، مرتبطاً الى الأناسي . وكانت راقصات أغادير قد أظهرن له العطف والحنان ولكنه استأذنهنّ بالانصراف من غير مشقة ، مثلما قدم عليهن ؛ لم يكنّ في حاجة اليه . وذلك النادل في المقهى العربي ، واولئك المارون في الشوارع ، كانوا كلهم يحترمون فيه الانسان الحر ، يقاسمونه الشمس مقاسمة الانداد ، ولكن اياً منهم لم يظهر انه في حاجة اليه . كان حراً ، ولكنها حرية لانهائية حتى يكاد منها ألا يحس بثقله على الارض . وكان ينقصه ذلك الثقل الذي للعلاقات الانسانية الذي يعيق المشية ، ينقصه تلك العبرات ، وقفات الوداع ، كلمات الملام والمعاتبة ، الأفراح ، كل ما يداعبه المرء او يمزقه كلما بدرت عنه حركة، تلك الأمراس التي لا تحصى تشده الى الآخرين ، فتجعله ثقيلاً . ولكن ها هي ذي آمال لا تحصى تنزل ساح بارك ..

وكانت مملكة بارك تبدأ في ذلك الغار المظفر الذي تعقده شمس أغادير الغاربة على مفرقها ، في هذه الطراوة التي ظلت دهراً طويلاً وهي العذوبة الوحيدة التي ينتظر ، الحظيرة الوحيدة . واذ كانت ساعة الرحيل تدنو كان بارك يتقدم وهو يستحم في هذا المد الزاخر من الاطفال ، كما كان في الماضي مع نعاجه ، ويحرث خطه الأول في حقل العالم. غداً سيعود ، الى بؤس ذويه،

مسؤولاً عن عدد من الافواه قد يكون اكبر مما تستطيع ذراعاه الهرمتان ان تطعم ، ولكنه كان قد تشرب ثقله وتشبع به . ومثل كائن ملائكي خفته أشد من ان تُمكنه من ان يحيا حياة الناس ، فاذا هو يحتال ، يخيط قطعاً من الرصاص في زناره ، كان بارك يخطو خطوات عسيرة ، يشد الى الأرض ألف طفل . ألف طفل يحتاجون الى خفاف مذهبة حاجة شديدة .

٧

هذه هي الصحراء . قرآن ليس إلا خطة وقاعدة يحيل الرمل الى مملكة . ان في قلب الصحراء التي يخالها الانسان خلاء تمثل مسرحية خفية تلعب بالأهواء الانسانية . ان حياة الصحراء الحقيقية ليست مصنوعة من هجرات القبائل في طلب كلأ ترعاه الماشية وحسب، ولكن من لعبة تلعب في جنباتها ايضاً . ما الفرق في المادة بين الرمل الخاضع ورمل غيره ! أليس الأمر كذلك بالنسبة للناس كافة ؟ لقد تذكرت ، وانا اواجه تلك الصحراء التي تغير وجهها ، العاب طفولتي ، الحديقة الوارفة المذهبة التي عمرناها بالآلهة ، مملكة لا تخوم لها ، كنا نصنعها من ذلك الكيلومتر المربع الذي لم يُعرَف تماماً قط ، لم يستكشف تماماً قط. كنا نؤلف مدينة مغلقة ، للخطى فيها نكهة ، للأشياء فيها معنى لا تتيحه امكنة اخرى أبداً . ما عسى ان يتبقى لك اذ غدوت رجلاً تحيا في ظل قوانين اخرى من حديقة مفعمة بظلال الطفولة ، حديقة مسحورة ، متجمدة ، محرقة ، تمر بها الآن من الخارج وتسير على طول الجدار الصغير المبني من الاحجار الرمادية ، فيدهشك ان تراها مغلقة على فسحة بمثل هذا الضيق ، إقليماً صنعت انت لانهائيتها ، وها انت ذا تفهم انك لن تدخل هذا اللانهائي من بعد أبداً ، ذلك لانك يجب ان تدخل اللعبة لا الحديقة .

ولكن لم يعد هناك أراضٍ عاصية ، وفي رأس جوبي ، وسينيروس ، في

بورتو كانسادو ، في ساغة الحمراء ، في دورا ، في سمارا .. لم يبـق أي سر . والآفاق التي هرعنا اليها انطفأت واحداً بعد واحد ، مثل تلك الهوام التي تفقد ألوانها متى ما أطبق عليها فخ من ايدٍ دافئة . ولكن ذلك الذي كان يطاردها لم يكن ألعوبة الوهم . لم نكن مخدوعين حينا كنـا نتراكض خلف هذه المكتشفات . وكذلك سلطان ألف ليلة وليلة الذي كان يطارد مادة من الرخاصة والشفافية حيث كانت سباياه تنطفىء مع الفجر بين ذراعيه بعد ان يكنّ ، في غمرة اللمسات ، قد فقدن ذهب اجنحتهن . لقد تغذينا بسحر الرمال ، ولعل آخرين سيحفرون فيها آبارهم النفطية ، ويغتنون من سلعهم . ولكنهم سيقدمون وقد فات الأوان . لأن كروم النخيل المحرمة ، او غبار القواقع البكر اسلمتنا شطرها الأثمن : انهن لا يمنحن إلا ساعة من حرارة ، ونحن الذين عشناها .



الصحراء ؟ قيض لي ان ادنو منها بالقلب في اثناء رحلة الى الهند الصينية ، عام ١٩٣٥ ، وجدتني في مصر ، على تخوم ليبيا ، اسيراً لرمـل كالشرك ، وخيل الي اني هالك . وهاك القصة .

الفصل السابع

في قلب الصحراء

١

لما بلغت البحر الابيض المتوسط صادفت غيوماً منخفضة ، هبطت الى ارتفاع عشرين متراً والمطر المدرار يتكسر على حاجز الهواء ، والبحر يبدو كأن سحباً من الدخان تتصاعد منه . وبذلت جهوداً كبيرة حتى أميّز شيئاً من الاشياء حواليّ وحتى لا اصطدم بسارية سفينة .

وأخذ ميكانيكيّ « أندريه بريفو » يشعل لي السجاير .

— قهوة ..

ويغيب في مؤخرة الطائرة ويعود بالترمس ، وأشرب . وبين حين وآخر أضغط ضغطات صغيرة على مقبض الغاز حتى يحتفظ بدوران ألفي دورة . واكنّس ، بنظرة واحدة ، لوحة القيادة : كان أفراد رعيتي مثالاً في الطاعة. كل إبرة في محلها . وارمي نظرة الى البحر الذي يطلق تحت المطر أبخرة ، كأنه حوض كبير ساخن . لو اني كنت في طائرة مائية لأسفت ان يكون على مثل هذا « العمق » ، ولكنني في طائرة . وسواء كان عميقاً او مثل صفحة الزيت فلا استطيع ان اهبط عليه. وهذا ينزل على قلبي ، لست ادري لماذا ، سكينة مبهمة . فالبحر جزء من عالم ليس هو بعالمي أنا . والعطل هنا لا يتصل بي من قريب او بعيد : فأنا لم أهيأ لمنازلة البحر .

بعد ساعة ونصف الساعة من الطيران هدأ مدرار المطر ، ولكن ظلت السحب شديدة الاسفاف ، وإن يكن النور قد بدأ يخترقها كأنه ابتسامة واسعة . واهيم عجباً بهذا الاعداد الوئيد تُعِدّ به الطبيعة الطقس الحسن . واحدس فوق رأسي سِمَاكاً من القطن الابيض . وبينا انعطف كي اتفادى زوبعة ، لم يكن ضرورياً ان اخترق قلبها . واذا انا ارى اول شق في الغيوم ..

لقد استشففته من غير ان اراه لاني كنت ارى ، قبالتي على البحر ، مرطاً طويلاً من المروج ، شيئاً يشبه الواحة ، اخضراره مضيء وعميق ، مثل اخضرار حقول الشعير ، في الجنوب المغربي ، التي كانت تخفق لها جوارحي لما كنت أؤوب من السنغال ، بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من رمال. هنا ايضاً كنت احس اني ابلغ اقليماً مأهولاً فأترشف مراحاً خفيفاً ، واستدير نحو بريفو :

— نجونا ، كل شيء على ما يرام !

— اجل ، كل شيء على ما يرام ..

تونس .

واوقّع اوراقاً بينما تُزَوَّد الطائرة بالوقود . ولكن في لحظة مغادرتي المكتب ، اسمع صوتاً : « بلوف » ، كأن شيئاً يغوص في الماء . ضوضاء صماء ، ليس لها صدى . واتذكر ، في اللحظة ذاتها ، انني سبق لي سماع ضوضاء مثل هذي : انفجار في مرآب . وقد قتل رجلان على اثر هذه السّعلة الجشاء . واستدرت نحو الطريق الممتد على طول المهبط : كانت سحابة صغيرة من الغبار ترتفع ، وسيارتان سريعتان قد اصطدمتا واحدتها بالاخرى فتسمرتا بغتة كأنها سقطتا في نهر جليدي . وكان رجال يهرعون نحوهما ، وآخرون يهرعون نحونا :

— تلفنوا .. طبيب .. الرأس ..

واستشعرت انقباضاً في قلبي . في هدوء الشفق سدد القـدر فأصمى جمالاً او ذكاء او حياة .. وهكذا فقـد تغلغل القرصان في الصحراء ولم يسمع احد وقع خطاهم اللدنة على الرمـــل . لا شيء في المضارب إلا تلك الجلبة القصيرة الأمد التي تسبق الغزوة . ثم يعود كل شيء فيغوص في الصمت المذهب من جديد . السلام ذاته ، الصمت ذاته .. وقربي كان احدهم يتكلم عن كسر في الجمجمة . وأنا لا أوّد ان أعلم شيئاً عن هذا الجبين الاشل المدّمى ، فأدير ظهري الى الطريق وأعود الى طائرتي . ولكني احتفظ بميسم تهديد ماثـل وسم قلبي . وتلك الضوضاء تعرفتها الآن . تعرفت السّعلة الجشاء ذاتها حينما انبطحت على تلك الهضبة السوداء بسرعة مائتين وسبعين كيلومتر في الساعة : ضوضاء القدر ذاتها هي التي كانت وإيانا على الموعد .

الرحيل الى بنغازي .

٢

الرحيل. النهار ما زالت به بقية ساعتان . وقد رفعت نظارتي السوداوين ونحن ندنو من طرابلس الغرب . والرمل يغدو بلون الذهب . رباه ما أشدّ ما هو قفر كوكبنا هـــذا ، قفر وصحراء ! مرة أخرى بدت لي الانهار والاظلال ومساكن الناس على هذا الكوكب ما هي إلا سدى مصادفة سعيد ولحمتها . وما اعظم نصيب الصخر والرمل !

ولكن هذا كله غريب علي ، فأنا أحيا في دنيـا الطيران . احس هبوط الليل الذي نعتكف فيه كأننا في معبد ، نعتكف ، مـع اسرار الطقوس الاساسية ، في تأمل لا غوث له . كل هذا العالم الجاحد ينطمس ولا يلبث ان يختفي . كل هذا المشهد لا يزال يغذوه نور أشقر، ولكن شيئاً ما يتبخر منه. وأنا لا أعرف شيئاً يضارع تلك الساعـة . واولئك الذين وَجِـدوا وجد الطيران الذي لا يفسر يفهمونني جيداً .

وهكذا وجدتني ارفض شيئاً فشيئاً الشمس ، ارفض المساحات الكبرى المذهبة التي كان ممكناً ان تستقبلني في حال عطل طارىء .. ارفض الصوى التي يمكن ان تهديني . ارفض ظلال الجبال على السماء التي ربما جنبتني القنن الصخرية . أنا ادخل في الليل. امخر العباب. ولم يعد لي من احد إلا النجوم..

تموّتُ العالم ذاك يجري هوناً .. ورويداً رويداً يعوزني النور . الارض والسماء تختلطان رويداً رويداً . هذه الارض ترقى ، وتبدو تتبدد بخاراً . النجوم الاولى تختلج كأنها في ماء اخضر ، ويجب الانتظار طويلاً حتى تتوهج لآلىء صلبةً . يجب عليّ ايضاً ان انتظر طويلاً حتى اشهد تلك اللُعَب الصامتة للشهب الساقطة . ما اكثر ما رأيت ، في قلب بعض الليالي ، من ذيول اللهيب هذه تركض ركضاً يخيّل إلي معه ان ريحاً عاصفة تهب بين النجوم .

وكان « بريفو » يجرب المصابيح الثابتة ومصابيح الاغاثة . ورحنا نلف زجاجها بالورق الاحمر .

– قطعة أخرى ..

ويضيف طبقة جديدة ، يمس وصلةً كهربائية . ولكن النور يظلُّ اسطع مما ينبغي . انه سيَلفعُ ، كما هي الحال عند المصور ، صورة العالم الخارجي الشاحبة . سيُخَرِّب هذا اللبّ الخفيف الذي يرتبط ، في الليل أحياناً ، بالاشياء . هذه الليلة تزداد عذوبة ، ولكن ليست هي الحياة الحقيقية بعد . لا يزال هناك هلال لم يخب . ويغوص « بريفو » في المؤخرة ويعود ومعه شطيرة . وأتسلى أنا بعنقود من العنب . لست جائعاً . ليس بي جوع ولا عطش ، وأنا لا أحس أي تعب ، ويخيل إلي اني اقود الطائرة هكذا منذ عشر سنوات .

ويموت القمر .

وتعلن بنغازي عن نفسها في الليل الاسود . بنغازي تستلقي في قاع ظلمة

عميقة لا تزينها أية هالة . ولمحت المدينة حينا بلغتها . وبينـا انا ابحث عن المهبط اذا الفنار الاحمر يشعل، كان الضوء يسطر مستطيلاً أسود. وانعطفت. كان نور فنار مسدد الى السماء يصعد مستقيماً مثل نافورة نار ، وينفتل ويخط على المهبط طريقاً من الذهب. وانعطف مرة أخرى حتى امّيز العقبات جيداً. ان التجهيز الليلي لهذه المحطة رائع . وخففت السرعـة وبدأت اغوص كأنما في ماء أسود .

لما هبطت كانت الساعة ٢٣ محلية . وسرت نحو الفنـار . وكان ضباط وجنود من أشد الناس تهذيباً ينتقلون من الظلام الى نور الفنار الشديد ، واذا هم تارة مرئيون وتارة غير مرئيين . وأخذوا اوراقي ، وبدأت عمليـة تزويد الطائرة بالوقود . وخلال عشرين دقيقة سيفرغون من امري .

— انعطف انعطافة وعد مرّ فوقنا ، وإلا جهلنا ما اذا كان الاقلاع قد تمّ على خير وجه .

الى الرحيل .

أنا ادرج فوق هذا الطريق من ذهب، نحو منفذ لا عقبات فيه. وطائرتي، من طراز « سيمون » ، تقلع قبل ان تبلغ نهاية الحلبة بمسافة كبيرة . والفنار يلاحقني ويزعجني عن انعطافي . واخيراً ها هو ذا تركني . لا بد انهم احسوا ان النور كان يبهرني . ورسمت طائرتي نصف دائرة عمودية في الجو واذا نور الفنار يعود فيضربني في وجهي ، ولكن لم يكد يمسني حتى وجّه ذؤابتـه الذهبية الطويلة وجهة اخرى . واحسُّ وراء هذه الاشارات المترفقة حفاوة كبرى بي وتلطفاً لا حد له. والآن، هاأنذا انعطف مرة اخرى نحو الصحراء.

وانبأتني أرصاد باريس وتونس وبنغازي ان هنـاك رياحاً خلفية سرعتها من ثلاثين الى اربعين كيلومتراً في الساعة . وكنت اتوقع ان تكون رحلتي على اساس ثلاثمائة كيلومتر في الساعة ، فيممت شطر الخط المستقيم الواصـل بين القاهرة والاسكندرية . وهكذا سوف اتحاشى المنـاطق المحرمة من

الشاطىء . وعلى الرغم مما قد يقع لي من تحيدانٍ عن سبيلي فإني سأظل متشبثاً ، سواء عن يميني او عن يساري بأضواء هذه المدينة او تلك او اذا شئت بأضواء أيةٍ من مدن وادي النيل . وسأمخر العباب ثلاث ساعات وعشرين دقيقة اذا لم تتغيّر الريح ، وثلاث ساعات وخمساً واربعين كيلومتر من صحراء .

سماء ولا قمر . طيلسان من القار الاسود يشتمل النجوم ذاتها . لن ألمح ناراً،لن أُفيد من اية صورة او مَعْلمٍ،ولما لم يكن هناك راديو فسأظل من غير اشارة تأتيني من انسان الى ان ابلغ النيل . ولا اعود اراقب شيئاً إلا بوصلتي وجهاز ضبط التوازن . واكفُّ عن الاهتمام بأي شيء مـا خلا فترة التنفس البطيئة ، على اللوحة القاتمة للأداة ، التي يتنفسها خطٌ من الراديوم . وعندما يتنقل « بريفو » في جنبات الطائرة أصحح أنا في لطف توازنها . انا اطير على ارتفاع ألفي متر ، هنالك حيث الرياح ، كما اشير علي ، ملائمة . وخلال فترات متباعدة اشعل مصباحاً لأراقب اللوحات ـ المحركة التي ليست كلها مضيئة ، ولكني طوال الشطر الاعظـم من الوقت اوصد على نفسي سدول الظلام جيداً ، واعتكف بين مجرّاتي الصغيرة التي تنثر النور المعـدني نفسه الذي للنجوم ، النور الابدي الخفيّ نفسه ، والتي تتكلم لغة النجوم نفسها . ولكني ، مثل الفلكيين ، كنت اقرأ كتاباً في الميكانيك السماوي انا ايضاً . ولكني ، انا ايضاً ، أحِسُّني مجتهداً صافياً . كل شيء قـد خبا في العالم الخارجي . هناك « بريفو » تأخذه سنة من النوم بعد ان جاهدها طويلاً . وانا اترشف وحدتي خيراً مما كنت اذ هو يقظان.وهناك هدير المحرك العذب، وقبالتي ، على لوحة الطائرة كل النجوم وادعة هادئة .

واتفكر مع ذلك . لم نكن نفيد من القمر وقد حرمنـا من الراديو . وما من صلة ، مهما وهنت ، تصلنا بالعالم الى ان يواجهنا خيط الانوار على عدوتي النيل . نحن خارج الكل ، ومحركنا وحده يعلقنا ويجعلنا نستمر في هذا القار الذي يسد الآفاق . إننّا نجتـاز الوادي الكبير الاسود ، وادي

قصص الجان ، وادي التجربة . هنا عزّ الغوث. هنا لا غفران من خطيئة . هنا نحن مسلمون لرحمة الله .

دفقة نور تتسرب من نقطة في المولد الكهربائي . واوقظ « بريفو » لكي يطفئها . بريفو يتحرك في الظلام مثل دبّ، يتشاغل، يتقدم ، يستغرقه لست ادري ايُّ شاغل من مناديـل وورق اسود . واختفت دفقة النور . كانت تؤلف كسراً في هذا العالم . لم تكن قط من النوع نفسه الذي لنور الراديوم الشاحب القمّي . كان نور علبة من علب الليـل وليس نور نجمة . ولكن الأهم انه كان يبهرني ، يطمس الاضواء الاخرى .

ثلاث ساعات طيران ، واذا ضياء بدا لي قوياً ينبجس عن يميني . انظر . ان خطاً طويلاً من النور يتشبث بمصباح طرف الجنـاح الذي ظل حتى تلك اللحظة خافياً عني . انه ضوء متقطع ، تارةً مديد ملح ، وأخرى مُنـْمَحٍ : هاأنذا ادخل غيمة . انها هي التي تعكس ضوء مصباحي . لقد كنت اؤثر ، وانا على قابٍ من صواي ، سماء صافيـة . واضاء الجناح تحت هالة الضوء . واقام النور ، استقر ، شعّ ، ألـّف هناك باقة وردية . واذا زعازع عميقـة تهزني. كنت امخر، لست ادري اين، ركام رياح لا اعلم مقدار سماكته . وأرتفع حتى ألفين وخمسة امتار ولكني لا اطفو ، فأعود اهبط على ارتفاع ألف . ان باقة الازهار لا تزال ماثلة ، ثابتة تزداد سطوعاً . حسناً ، فليكن . ماذا يهم ! انا افكر في شيء آخر . سنرى متى نستطيع الخروج من هذا المأزق . ولكني لا احب ضوء الفندق الفاسد هذا .

واحسب : « انا هنا ارقص قليلا ، وهذا طبيعي ، ولكني تحملت الهزات طوال طريقي على الرغم من السماء صافية والارتفاع . ولم تسكن الريح قط، ولا بد ان سرعتي قد تجاوزت الثلاثمائة كيلومتر في الساعة » . وبعد فأنا لا اعلم شيئاً دقيقاً ، سأحاول ان اعين موقعي بعد ان أخرج من الغيمة .

ونخرج منها . لقد اختفت الباقة فجـأة . اختفاؤها هو الذي انهى إليّ

نبأ الحادث . وانظر الى الامام فأرى ، بقدر ما تسمح لي الرؤية ، وادياً من السماء ضيقاً وجدار ركام دان آخر . واشتعلت الباقة من جديد.

اذن فلن أخرج من هذا الشرك إلا بضع ثوان . وبعد ثلاث ساعات ونصف من الطيران بدأ الشرك يقلقني ذلك لأني كنت غير بعيد من النيل اذا كنت اتقدم كما أتخيل . وربما استطعت ان ألمحه ، اذا اسعفني قليل من الحظ ، من خلال الشقوق التي لم تكن قط عديدة . ولا أجرؤ على ان اهبط الى اقل من ألف متر لاني اذا كنت قد طرت في سرعة تقل عن التي قدرتها فأنا الآن حتماً لا ازال اطير فوق اراض مرتفعة .

ما برحت بعيداً من ان احس القلق . انا اخشى ان اضيع الوقت وحسب . ولكني احدد امداً لطمأنينتي : اربع ساعات وخمس عشرة دقيقة من الطيران . بعد هذه المدة ، حتى ولو كانت الريح خامدة جداً – وهو امر غير محتمل – أكون قد اجتزت وادي النيل .

وأصل الى حواشي الغيمة فأرى الباقة تقذف نيراناً خاطفة لا تنفك متلاحقة اكثر فأكثر ، ثم تنطفىء بغتة . انا لا احب هذه المواصلات الرمزية مع شياطين الليل .

وتطفو نجمة خضراء أمامي ، باهرة كالفنار . أهي نجمة ام فنار ؟ انا لا احب كذلك هذا الضوء فوق الطبيعي ، وهذا الكوكب الجنّي ، هذه الدعوة الخطيرة .

ويكون « بريفو » قد افاق واضاء اللوحات – المحركة . وادفعه ، هو ومصباحه . فقد بلغت هذا الشق بين غيمتين وهأنذا اغتنم الفرصة فأنظر تحتي . ويعود « بريفو » الى النوم .

الواقع ان ليس ثمة ما انظر اليه .

اربع ساعات وخمس دقائق من طيران :

– كان علينا ان نكون في القاهرة ..

– من كل بد ..

– أهذا نجم ام فنار ؟

وخففت من سرعة محركي قليلاً وهذا ما ايقظ « بريفو » حتماً . انه شديد الحساسية لكل ما يحدث من تغيرات في اصوات الطيران . وابدأ انا هبوطاً بطيئاً ، حتى انزلق تحت كتلة الغيوم .

لقد استشرت خريطتي . مهما يكن من امر فقد بلغت الأماكن المشار اليها بحرف «O» : لا خوف علينا .

انا لا ازال اهبط وانعطف الى الشمال تماماً . على هذا النحو ستأتيني انوار المدن الى نوافذي مباشرة . لا بد اني تجاوزتها . اذن ستظهر لي عن يسار . انا اطير الآن تحت الركام ، ولكني احاذي غيمة اخرى تسفُّ اسفافاً اشد عن يساري . وانعطف حتى لا اقع في شباكها . وامضي من الشمال الى الشمال الشرقي .

هذه الغيمة تسفُّ لا محاولة وتقنّع الأفق كله . ولا اعود اجرؤ على الهبوط اكثر مما فعلت . لقد بلغت النقطة ٤٠٠ من ارتفاعي ، ولكني اجهل مقدار الضغط هنا . وينحني « بريفو » ، فأصيح به : « سأنطلق حتى ابلغ البحر وانتهي الى النزول في البحر حتى لا اصطدم بالارض .. »

ولكن ما من شيء يثبت اني لم اجنح ناحية البحر . فالظلمة تحت هذه الغيمة موصدة بكل ما في الكلمة من معنى . والتصقت الى نافذتي ، ورحت احاول قراءة ما تحتي ، احاول ان اكتشف النيران ، الاشارات . انا انسان ينبش في الرماد . انا انسان يبحث جاهداً عن جمر الحياة في قرارة موقد .

– فنار بحري !

رأينا ذلك الفخّ المتذبذب في آن واحد ! يا للجنون ! اين كان هذا الفنار الشبح ، هذه البدعة يبتدعها الليل ؟ ذلك لانه ، في اللحظة ذاتها التي انحنينا بها انا و « بريفو » ننظر اليه من جديد وهو على بعد ثلاثمائة متر تحت جناحي ، واذا فجأة ..

ـ آه !

اظن جيداً اني لم انطق بسواها . اظن جيداً اني لم احس شيئاً آخر غير تصدع فظيع زعزع عالمنا كله فوق اسسه . ذلك اننا اصطدمنا ونحن نسير بسرعة مئتين وسبعين كيلومتر في الساعة ، بالارض .

اظن جيداً انني لم انتظر شيئاً آخر، خلال عشر معشار الثانية التي اعقبت ذلك ، غير نجمة الانفجار الحمراء العظيمة التي ستلتهمنا نحن الاثنين . ولم نحس ، لا « بريفو » ولا انا ، ادنى انفعال . لم اكن ارقب في ذاتي إلا انتظاراً لا وجود له ، انتظاراً لتلك النجمة الوهاجة التي سنغيب في لججها في اللحظة ذاتها . ولكن لم يكن ثمة نجمة حمراء . حدث زلزال خرّب حجرتنا وانتزع النوافذ وبعثر الواح الطائرة الى مئة متر وملأ حتى احشاءنا برعوده . كانت الطائرة ترتعد مثل سكين غرز في خشب قاس ، وقد صكّنا ذلك الغضب صكاً . ثانية ، ثانيتان .. والطائرة لا تكفُّ عن الارتعاد ، وانا انتظر في ذهاب صبر رهيب ان تفجرّها مدخراتها من الطاقة كأنها قنبلة يدوية . ولكن الزعازع الارضية تستطيل من غير ان يقع الانفجار النهائي . وأنا لا افهم شيئاً من هذا العمل غير المنظور . لا افهم هذا الزلزال ولا هذا الغضب ولا هذا الريث الذي لا ينتهي .. خمس ثوان ، ست ثوان .. فجأة ، اخذنا احساس بالدوران وصدمة قذفت بسيجارتينا من النافذة وعصفت بالجناح الايمن فجعلته هشيماً ، ثم .. لا شيء . لا شيء إلا جمود جليدي . واصرخ « ببريفو » :

ـ اقفز سريعاً !

في هذه اللحظة كان يصرخ هو :

ـ النار !

وقفزنا من النافذه المنتزعة . وعلى بعد عشرين متراً كنا نقف ، واقول لـ « بريفو » :

ـ ألم يصبك سوء ؟

ويجيبني :

ـ لا !

ولكنه يفرك ركبته .

واقول له :

ـ تلمّس نفسك ، تحرك ، اقسم لي انك لم تصب بكسر ..

ويجيبني :

ـ لا شيء ، انها مضخة الانقاذ ..

وانا افكر في انه على وشك ان ينهـار فجأة ، ان ينشق من مفرقه الى سرّته ولكنه كان يكرر لي وعيناه ثابتتا النظرة :

ـ انها مضخة الانقاذ !

وانا افكر : ها هو ذا قد جن ولا يلبث ان يرقص ..

ولكنه حاد ببصره آخر الأمر عن الطـائرة التي نجت من الحريق ونظر إلي وعاد يقول :

ـ لا شيء ، ان مضخة الانقاذ قد تشبثت بركبتي .

٣

يعسر تعليل نجاتنـا . رحت أتتبع آثار الطائرة على الارض ومصباحي الكهربائي في يدي . على بعد مئتين وخمسين متراً من نقطة التوقف كنا نعثر على قطع حديدية ملوية وألواح عصفت بالرمل على طول المسافـة التي درجت فيها على الأرض . وسنعلم عندما يطلع النهار اننا اصطدمنا على نحو يكاد يشبه الملامسة سفحاً ميناً من هضبة صحراوية . وفي مكان الاصطدام كان ثمة شق يشبه ذلك الذي يحدثه الحراث . لقـد زحفت الطائرة على بطنها ، من غير ان تنقلب ، بنزق ذنب الافعى وحركاته . لقد زحفت بسرعة مئتين وسبعين كيلومتر في الساعة . ولا بد اننا مدينون بحياتنا لهاتيك الاحجـار السوداء

الكروية التي تدور على هواها فوق الرمل وتجعل من الهضبة هضبة ذات كرات !

وقطع « بريفو » المكثفات لمنع حريق تحدثه متأخراً الدارات القصيرة . واسندت ظهري الى المحرك ورحت افكر : لقد استطعت ان اتحمل ، على ارتفاع شاهق ، وخلال اربع ساعات وخمس عشرة دقيقة ، ريحاً سرعتها خمسون كيلومتراً في الساعة ، والواقع اني كنت اهتز . ولكن اذا تغيرت منذ التنبؤات الجوية التي وصلتني فأنا لا بد جاهل كل شيء عن الوجهة التي اخذتها فيا بعد . واحدد موقعي في مربع ضلعه اربعمئة كيلومتر .

ويأتي بريفو فيجلس قربي ، ويقول لي :

– شيء خارق ان نكون احياء ..

ولا اجيبه بشيء ، ولا احس اي فرح . فقد وفدت عليّ فكرة صغيرة كانت تتخذ سبيلها في رأسي وتعذبني عذاباً خفيفاً .

وارجو بريفو ان يضيء مصباحه حتى يكون معلماً وامضي امامي مباشرة ومصباحي الكهربائي في يدي . كنت انظر الى الارض في انتباه . واتقدم في بطء فأرسم نصف دائرة واسعة واغير اتجاهي عدة مرات واقلب النظر في الارض ، ، كأني افتش عن خاتم ضائع . منذ حين يسير كنت ابحث عن الجمر . وامضي قدماً في الظلام مُكِباً على القرص الابيض الذي ادفعه امامي هنا وهنا . هذا هو .. هذا هو .. واعود وئيداً نحو الطائرة . واجلس قرب الحجرة واتفكر . كنت ابحث عن تَعِلّةٍ للأمل فلا اجدها ابداً . ابحث إيماءة تمنحها الحياة ولكن الحياة لم تومىء إلي .

– لم اعثر على عرق عشب واحد يا « بريفو » ..

وبريفو يلوذ بالصمت ، ولا ادري ما اذا كان قد فهمني . سنتكلم على ذلك عند رفع الستار ، عندما يطلع النهار . انا احس وناءً ووصباً شديداً ، وافكر : « على بعد اربعمئة كيلومتر ، في الصحراء !.. »

فجأة اقفز واقفاً :

ــ الماء .

لقد تبخّرت خزانات الوقود وخزانات الزيت ، وكذلك احتياطنا من الماء . وشرب الرمل كل شيء . ولكننا نجد نصف لتر من القهوة في قعر ترمس محطم . ربع لتر من الخمرة البيضاء في قعر آخر ، فنصفّي هذين السائلين ونمزجهما . ونجد ايضاً قليلاً من العنب وبرتقالة . ولكني احسب : « خلال خمس ساعات من مسير ، تحت الشمس ، في الصحراء نستهلك هذا كله .. »

وندخل الحجرة ننتظر فيها النهار . واتمدد لأنام . وبينا انا احاول النوم اقوم باستعراض مغامرتنا : نحن نجهل كل شيء عن موقعنا . لا نملك لتراً واحداً مما يطفىء الظمأ . اذا كان موقعنا عن الخط المستقيم تقريباً ، عثروا علينا بعد ثمانية ايام ، ولا نستطيع مطلقاً ان نأمل خيراً من ذلك ، وسيكون عثورهم علينا بعد فوات الاوان . واما اذا كنا قد جنحنا عن الخط المستقيم فسيجدوننا بعد ستة اشهر : يجب ألا تعلق آمالاً عراضاً على الطائرات لانها ستبحث عنا على ثلاثة آلاف كيلومتر .

ويقول لي بريفو :

ــ آه ، مؤسف ..

لماذا ؟

ــ كان ممكناً ان ننتهي من هذا كله دفعة واحدة !..

ولكن يجب على الانسان ألا يسلّم في مثل هذه السرعة . إننا نلملم شعث انفسنا . يجب ألا نفقد الأمل ــ مهما يكن هزاله ــ في انقاذ ، يتم بمعجزة ، عن طريق الجو . وكذلك يجب ألا نظل في مطرحنا ونفوّت علينا فرصة العثور على واحة ، ربما كانت غير بعيدة منا . سنمشي اليوم طوال النهار . وسنعود الى طائرتنا وسنسجل برنامجنا بأحرف ضخمة على الرمل .

اذن فأنا ملتفٌ على نفسي مثل الكرة وسأنام حتى مطلع الفجر . وانا اسعد الناس بالنوم . تعبي يغلّفني بألف حضور . انا لست وحدي في الصحراء لأن نومي الفزّ [1] انما تعمره اصوات وذكريات وإسرار يُهمس همساً رقيقاً هيناً . وانا لم أظمأ بعد . وأحسُّ اني على ما يرام ، فأستسلم للنوم كالمغامرة . الواقع ينهزم امام الحلم ..

– آه ! ما أشد ما اختلف الأمر لما طلع النهار !

٤

لقد أحببت الصحراء حباً جماً . قضيت ليالي في الاراضي العاصية . افقت في هذه الأمداء الشقراء التي تخلف عليها الريح تثنيها كما تخلفه على صفحة البحر . وفيها انتظرت ، اكثر من خطرة ، النجدة وانا نائم تحت جناحي ، ولكن لم يكن هذا كله شبيهاً بحالنا الآن .

ونسير على سفوح هضاب حدباء . الارض مؤلفة من الرمل المكسو كسوة تامة بطبقة من الحصى اللامع الاسود . تقوله زعانف معدنية ، وكل القباب التي تحف بنا تبرق كالدروع . لقد سقطنا في عالم معدني ، حبسنا في مشهد من حديد .

ولا نكاد نجتاز قمة حتى تبدو لنا قمة أخرى في البعيد ، مثل هذه ، لامعة ، سوداء . ونحن نمشي ونكشط الارض بأقدامنا ، فنُحدث خطاً يكون لنا هادياً فيما بعد . وإنا نتقدم مستقبلين الشمس . لقد قررت ان امضي شرقاً ، خلافاً لكل منطق ، لأن كل شيء يحفزني على الاعتقاد بأنا أجزنا النيل : الأرصاد وزمن طيراني . ولكني قمت بمحاولة قصيرة نحو الغرب فأحسست ضيقاً لم اعلله لنفسي قط . حينئذٍ اجلت الغرب الى الغد . وضحيت

---

(١) الخفيف ، بين نائم ويقظان .

موقتاً بالشمال على الرغم من انه يفضي بنا الى البحر . وبعد ثلاثة ايام ، عندما سيقرُ رأينا ، ونحن في شبه بحران ، على ان نهجر طائرتنا نهائيـاً ونسير الى الأمام مباشرة حتى السقوط ، فإننا سنتجه الى الشرق ايضاً ، اذا شئت الدقة فإلى الشمال الشرقي . وهذا ايضاً ضد لكل رجاحة عقل ، كما انـه ضد كل أمل . وسنكتشف ، عندما ننجو ، ان اية وجهة غير هـذه ما كانت قادرة على ان تتيح لنا عودة ، لأننا ، وقد نضب فينا معين القوة ، مـا كان في وسعنا اذا نحن اتجهنا شمالاً ان نبلغ البحر . ومهما يكن في تعليلي من شطط واستحالة فيخيل الي الآن اني ما اخترت هـذه الوجهة ، أنا الذي لم اكن املك اي دليل يمكن ان يثقل من خياري ، إلا لأنها هي التي سبق لها ان انقذت صديقي « غيوميه » في الآنـد حيث بحثت عنه زمناً طويلاً . لقد اضحت عندي ، على نحو غامض ، وجهة الحياة .

بعد خمس ساعات من مسير تغير المنظر . كان يخيل اليك ان جدولاً من الرمل يجري في واد ، ونسلك نحن هذا المجرى . نمشي بخطوات واسعة لأن علينا ان نذهب الى ابعد مدى ممكن ونعود قبل هبوط الليـل اذا لم نعثر على شيء . وبغتة اتوقف :

— « بريفو » .
— ماذا ؟
— الآثار ..

كم مضى علينا من الوقت ونحن ذاهلان عن ترك خط ورائنا ؟ اذا لم نجده فالموت محقق .

وعدنا على اعقابنا مع ميل نحو اليمين. عندما سنصبح على بعد كاف سنجنح عمودياً على خط وجهتنا الاولى ، ونقفو آثارنا هناك حيث كنا لا نزال نخطها.

وما ان نعقد هذا الخيط حتى نستأنف الرحيـل . الحرارة الى صعود ، ومعها تبدأ ولادة السراب. ولكن لم تكن بعد إلا انواع من السراب بدائية. بحيرات عظيمة تتشكل وتختفي اذ ندنو منها . ونقرر ان نجتاز وادي الرمل

ونتسلق أعلى قبة في المنطقة حق تتسنى لنا مراقبة الافق . وكنا نسير منذ الساعة السادسة . لا ريب اننا قطعنا ، بخطواتنا الواسعة ، ما يقرب من خمسة وثلاثين كيلومتراً . ونصل الى ذروة ذلك الكثيب الاسود ونجلس في صمت . ان وادي الرمل تحت اقدامنا ، يصب في صحراء من الرمال ما فيها قطعة حجر واحدة ، صحراء يحرق سناهـا الابيض الصارخ الأعين . وعلى مدى النظر يترامى الفراغ . ولكن في الافق ، يلعب النور فيخلق ألف سراب ادعى الى الاضطراب والبلبلة . قلاع ومآذن ، كتل هندسية عمودية الخطوط . وأرى بقعة سوداء شاسعة تشبه النبات ، ولكنها مجللة بآخر تلك الغيوم التي تنحل في النهار وستنبعث كرة اخرى ذلك المساء . هـذه البقعة الخضراء ما هي إلا ظل السحاب .

عبثاً نتقدم اكثر مما فعلنا ، وهذه المحاولة لا تؤدي الى اي مكان . يجب ان نعود الى طائرتنا ، تلك المنارة الحمراء والبيضاء ربما لمحها الرفاق . وعلى الرغم من اني لم أعد اعلق آمالاً عراضاً على بحث الرفاق إلا انـه يبدو لي الأمل الوحيد في الخلاص . ولكن الانكى اننا تركنا هنالك آخر قطرات الشراب ونحتاج الآن الى الشرب حاجة ملحة . يجب ان نعود لنعيش . نحن أسيرا هذا الزرد الحديدي : حكم الظمأ القاطع .

ولكن من العسير على المرء ان ينكص على عقبه عندما يكون متجهاً ربما نحو الحياة ! ربما كان الافق ، بعيـداً عن السراب ، غنياً بالمدائن الحقيقية ، بأقنية الماء العذب والبراري . اعلم اني على صواب اذ ارجع ، ولكن ، مع ذلك ، يقع في خلدي اني اغرق اذ ارجع هذا الرجوع الرهيب .

واننا نتمدد قرب الطائرة ، بعد ان ذرعنا اكثر من ستين كيومتراً . واستهلكنا ما معنا من سوائل . لم نتعرف شيئاً في الشرق وما من رفيق طار فوق هذه البقعة . كم من الوقت ترانا نقاوم ؟ لقـد أمضنا العطش منذ الآن ..

انتزعنا حطام الجناح المحطم وصنعنا محرقة كبيرة وهيأنا الوقود وصفائح المغنزيوم التي تنشر بريقاً ابيض قاسياً . وانتظرنا ان يدلهم الليل حتى نضرم حريقنا .. ولكن اين هم الناس ؟

وها هو ذا اللهيب الآن يصعد . ونحن ننظر الى منارنا في الصحراء خاشعين . ننظر الى رسالتنا الصامتة الباهرة تتوهج في الليل . وافكر انها اذا حملت نداءً أمسى مؤثراً فإنها تحمل كذلك كثيراً من المحبة . نحن نطلب رياً على ظمأ ولكننا نطلب كذلك وصالاً ، ان تتوهج نارٌ اخرى في الليل ، فالناس وحدهم يتمتعون بالنار فيردّوا على ندائنا !

وأرى عيني امرأتي . انا لا ارى شيئاً آخر سوى هاتين العينين . انهما تتساءلان . أنا ارى عيون كل اولئك الذين ربما كانوا يحرصون عليّ . وهذه الاعين تسأل . مجلس كامل من النظرات تأخذ عليّ صمتي . واني مجيب ! مجيب بكل قواي وانا لا استطيع ان اقذف في الليل بلهيب اكثر توهجاً !

لقد فعلت ما استطعت فعله . لقد فعلنا ما استطعنا فعله : ستين كيلومتراً ولم نكد نبلُّ ظمأنا بقطرة . ولن نشرب الآن ابداً . أهي خطيئتنا اذا عجزنا عن الانتظار اكثر مما انتظرنا ؟ ولعلنا كنا قادرين على ان نلبث هنا ، عاقلين ، نرضع مَطراتنا الفارغة . ولكن منذ الثانية التي تنشّقتُ فيها المطرة المعدنية بدأت ساعة جدارية مسيرها . منذ الثانية التي امتصصت فيها آخر قطرة بدأت أكر في منحدر . ما عساي ان اصنع اذا كان الزمان يجرفني كالنهر ؟ «بريفو» يبكي فأربت له كتفه . اقول له معزياً :

– اذا متنا فقد متنا ..

ويجيبني :

– اذا كنت تحسب اني ابكي على نفسي ..

إيه ! من كل بد ، لقد اكتشفت هذه البديهية . لا شيء غير ممكن الاحتمال . ولأعلمنّ غداً ، وبعد غد ، ان ليس في الدنيا شيء لا يمكن

احتماله قطعاً . وأنا لا أؤمن ايماناً تاماً بالعذاب . وقد سبق لي ان فكرت في ذلك . حسبت ذات يوم اني اغرق وأنا سجين حجرتي فلم اتعذب كثيراً . وأتخيل احياناً ان وجهي تكسر فلم يبد لي ذلك حادثاً جللاً . وهنا أيضاً لن اعرف الجزع مطلقاً . وغداً سأتعلم عن هذا الأمر اشياء أشد غرابة ايضاً . والله يعلم ما اذا كنت ، على الرغم من ناري العظيمة ، قد قصدت في اسماع صوتي للناس !..

« اذا كنت تحسب أني ابكي على نفسي .. » أجل ، أجـــل ، مـا هو ما ليس بمحتمل . كل مرة استعيد فيهـا صورة عينيه اللتين تنتظران احس حريقاً في قلبي. وتأخذني الرغبة في ان انهض وأجري من غير ان ألوي. هناك يصرخ صارخ في طلب الغوث لأنه يغرق !

يا له من قلب للأدوار ، ولكني فكرت ان الأمر كان دائماً كذلك . ومع هذا فقد كنت في حاجة الى « بريفو » حتى أتأكد مما فكرت فيه من قبل . إي نعم ، « بريفو » لن يعرف مطلقاً ذلك الجزع امـام الموت الذي يصك آذاننا . ولكن ثمة شيئاً لا يستطيـع تحمله كما لا استطيـع أنا .

آه ! انا راضٍ بأن استسلم للنوم ، سواء استمر نومي ليلة او استمر أعصراً . فاذا نمت فما انا بعالم الغرق ابداً . وبعد فأي سلام ! ولكن تلك الصيحات التي سيطلقونها هناك ، هذه الألسنة المستعرة من نار اليأس .. انا لا اطيق صورتها . انا لا املك ان اقف مكتف الذراعين امام هذه الصور الغرقى ! ان كل ثانية صمت تَغيلُ بعض الغَيـــلِ اولئك الذين أُحب . وان غضباً ، جامحاً يشبُّ فيَّ : علامَ هـذه السلاسل التي تعيقني عن الوصول في الوقت الملائم لاغاثة اولئك الذين يغرقون ؟ فيم حريقنا لا يحمل صرختنا الى آخر الدنيا ؟ ! إنا قادمون !.. إنا قادمون !.. نحن المنقذون !

واستُهلك المغنزيوم ونارنا تميل الى الاحمرار . لم يبق إلا كومة من الجمر ننحني ونصطليها . انتهت رسالتنا المضيئة الكبرى . ما عساها ان تكون

سيّرت في العالم ؟ إي نعم ، أنا اعلم يقيناً انها لم تسيّر شيئاً . ألا انها صلاة لم تقدر قط على ان تسمع نفسها .

هذا حسن . وسأروح انام .

٥

عند الشروق نشّفنا الجناحين بخرقة فتجمع لدينا ما يسعه قعرُ قدح من الندى المختلط بالدهان والزيت . كان مقزز النفس ولكننا شربناه . انه خير من لا شيء ، وبه بللنا شفاهنا . وبعد هذه المأدبة قال لي بريفو :

– من حسن الحظ ان معنا المسدس .

واحسستني على حين فجأة عدوانياً ، واستدرت نحوه بعداء شديد . وما كنت لابغض شيئاً مثل بغضي ، في تلك اللحظة ، تفجراً عاطفياً . كنت في حاجة شديدة الى ان اعتبر كل شيء هيناً ، سهلاً . سهل ان يلد الانسان وسهل ان يقتله الظمأ .

وطفقت أراقب بريفو من طرف عيني ، وانا على أهبة ان اجرحه اذا اقتضى الامر لكي يصمت . ولكن بريفو كلمني في هدوء . طرق مسألة صحية . وقد بدأ الحديث في هذا الموضوع مثلما يقال : « يجب ان نغسل أيدينا » . اذن فنحن متفقان . لقد تفكر البارحة حين لمحت القراب الجلدي . وكانت افكاري عقلانية لا عاطفية اذ ليس إلا الاجتماعي بقادر على ان يكون عاطفياً . ولذلك انصرف فكري الى عجزي عن طمأنة اولئك الذين نحن عنهم مسؤولون لا الى المسدس .

لا نزال ضائعين، لا يبحث عنا احد، او اذ اردت الدقة فان البحث جارٍ عنا في امكنة اخرى حتماً ، ربما الجزيرة العربية. وسوف لا نسمع اية طائرة قبل الغد . عندما نكون قد هجرنا طائرتنا . ستمرُّ بنا طائرة وحيدة على بعد سحيق ولكن مرورها سيتركنا غير مبالين . مـــا نحن إلا نقطتان

سوداوان مختلطتان بألف نقطة سوداء في الصحراء ، فهل نستطيع ان نزعم ان احداً قد لمحنا ! ولن يكون على شيء من الدقة ما سيروى عما لقيته من عذاب . انا لن اتحمل اي عذاب وسيبدو لى المنقذون وكأنهم يسيرون في كون آخر .

يحتاج العثور على طائرة لا تدري عنها شيئاً على مدى ثلاثة آلاف كيلومتر تقريباً الى خمسة عشر يوماً من بحث متواصل : فمن المحتمل ان يكون البحث عنا قد امتد من طرابلس الغرب الى العجم. ومع ذلك فأنا لا ازال احتفظ بهذا الامل الهزيل ما دمت لا املك سواه. غيرت من خطتي فذهبت أسبر الآفاق وحدي . وسيعد بريفو ناراً ويوقدها اذا وفد علينا زائر ، ولكننا لن نزار !

واذهب اذن وأنا لا ادري اذا كانت قواي ستسعفني فأعود . ويعود الى ذاكرتي ما أعلمه عن الصحراء الليبية . هناك تصل درجة الرطوبة الى ٤٠ ٪ في حين انها تهبط هنا حتى ١٨ ٪ . وتتبخر الحياة مثل البخار . ويعلمنا البدو والمسافرون وضباط المستعمرات ان في وسع الانسان ان يصبر ثماني عشرة ساعة من غير شرب بعد عشرين ساعة تمتلىء العينان بالنور وتبدأ النهاية : ويكون مسير العطش صاعقاً .

ولكن هذه الريح الشمالية الشرقية ، هذه الريح غير الطبيعية التي خدعتنا ، التي سمرتنا ، خلافاً لكل تنبؤ جوي ، الى هذه الهضبة ، هي التي تطيل في امدنا على الارض . ولكن اية مهلة تمنحنا إياها قبل ساعة الانوار الاولى؟

واذهب اذن ، ولكن يخيل إلى اني استقلُّ قارباً صغيراً في المحيط .

ومع ذلك ، فان الفجر قد خفف من وحشة هذا المنظر الكئيب حولى . وابدأ مسيري بادىء الامر ويداي في جيبي مثل النشالين . وكنا البارحة قد نصبنا شراكاً عند مدخل جحر بعض الحيوانات الارضية الخفية ، واستيقظ القناص الذي فيّ . واذهب بادىء الامر اتفحص الفخاخ واذا هي فارغة .

اذن فلن أشرب دماً. اذا شئت الصدق فأنا لم أكن آمل في العثور على شيء.

اذا لم يخب ظني فقد داهمني الحَيَّر : مما تحيا هذه الحيوانات في الصحراء؟ لا ريب في انها « انفيش » او ما تسمى ثعالب الرمـــال ، وهي من آكلات اللحوم ، في ضخامة الارنب ، ولها آذان ضخمة . ولا أطيق ان اقاوم رغبتي في ان أقفو آثارها ، فأفعل . وهى تقودني نحو جدول من الرمـل ضيق تنطبع فيه كل الخطى واضحة . وأتأمـل معجباً سعفة جميلة تصنعها أصابع ثلاث متباعدة كالمروحة . واتخيل صديقي وهو يهرول في لطافـة مع الفجر ويلحس حبات الندى على الاحجار . هنا تتباعد الآثار : ثعلبي الصغير قـد ركض . وهنا جاء رفيق الى لقائه وركضا خبباً يداً بيد . وهكذا وجدتني اشهد هذه النزهة الصباحية في فرحة غريبة . كم احب امارات الحياة هذه . وانسي اني ظمآن بعض النسيان ..

واخيراً اصل الى مستودع اطعمة ثعالبي الصغيرة . هنا تطل شجيرات ، زهيدة جافة ، لا ترتفع واحدتها عن قامـة قِدْر الحساء ، تطل كل مائة متر من الرمل وعلى سيقانها قواقع مذهبة صغيرة . والثعلب ينتجع هذه المطارح مع الفجر ويختار فيها مؤونته . واراني اصطدم هنـا بسر عظيم من اسرار الطبيعة .

وثعلبي لا يستأني عند الشجيرات كافة .

ان منها ما هو موقر بالقواقع ولكنه يحتقرها، ومنها ما يدور حواليها في تحوط وحذر جليين . ومنها ما يدانيهـا من غير ان يمسها بسوء ، يجتذب منها قوقعة او اثنتين ثم يغير مطعمه .

أهو يلعب لعبة تستهدف ألا يهدّىء من جوعه دقيقة واحدة ، وفي همّته ان يطيل في أمد لذاذته اثناء نزهته الصباحية ؟ لا أظن . ان لعبته تتوافق اكثر ممـا ينبغي مع خطة ضرورية . ذلك ان الثعلب الرملي اذا اشبع بطنه من محصولات الشجيرة الأولى فإنه يعريها ، خلال وجبتين او ثلاث وجبات ، من وسقها الحيّ .وهكذا ، من شجيرة الى شجيرة، لا يلبث ان يفقد قطعانه.

ولكن الثعلب يحاذر جيداً ان يعيق نموها وانسالها ايضاً . انــه لا يقصد في وجبة واحدة حوالي مائة من هــذه النبتات السمراء وحسب ، ولكنه لا يتناول قوقعتين متجاورتين على غصن واحد ابداً . وكل شيء يجري كما لو كان لديه وجدان الخطر . فاذا بشم من غير ان يحسب حساب الغــد بات من غير قواقع . واذا فنيت القواقع فني الثعالب الرملية .

وتفضي الآثار بي الى الجحر . الثعلب هنا يسمعني ولا ريب ، وقد ارعبه هدير خطواتي . واقول له : « أنا ميت » يا ثعلبي الصغير ، ولكن هــذا لم يمنعني من الاهتمام بمزاجك وخلائقك ..

وألبث ثمة احلم ويخيل إلي ان الانسان ينسجم مع كل حال. ولعلَّ فكرة انه ربما مات بعــد ثلاثين سنة لا تفسد افراحه ومباهجه في شيء . ثلاثون سنة ، ثلاثة أيام .. المسألة تتصل بزاوية النظر .

ولكن يجب نسيان بعض الصور ..

انا الآن ماض في طريقي وقد تغير شيء في نفسي مــع الثعلب الذي ينوء عليّ . واذا كان الافق خلواً من أي سراب فأنا اخترعه ..

– يا هو !

ورفعت ذراعي وأنا أصرخ ، ولكن ذلك الانسان الذي يتحرك لم يكن إلا صخرة سوداء . الحياة تدبُّ في كل شيء في الصحراء . اردت ان اوقظ هذا البدوي الذي كان ينام واذا هو يستحيل الى جذع شجرة سوداء ، جذع شجرة ؟ هذا الحضور يدهشني فأنحني . أود ان أرفع غصناً محطماً : إنه من مرمر ! وأعتَدِلُ واقفاً وانظر فيما حولي، فتتراءى لي قطع أخرى سوداء من المرمر. غابة عتيقة ، من قبل الطوفان ، تتكدس سوقها المحطمة على الارض . وما لبثتْ ان انهارت كما تنهار كاتدرائية ضخمة، انهارت منذ مائة ألف سنة، تحت الاعصار الذي اعقب خلق العــالم . ودحرجت العصور ، حتى موقفي ذاك ، أجزاء العمد الجبارة هذه ، المجلوة مثل قطع الفولاذ ، التي استحالت

الى حجر وزجاج بلون الحبر. وامّيز ايضا عقد الغصون ، وأرى تثني الحياة ، وأحصي حلقات الجذوع . هذه الغابة التي عمرتها الاطيـار والموسيقى حلت عليها اللعنة فاستحالت الى ملح . واحس ان هـذا المشهد يضمر لي العداء . هذا الحطام الفخم ، الأشد سواداً من دروع الهضـاب الحديدية ، يرفضني . ماذا أعمل هنا ، أنا الحي بين قطع المرمر التي لا يدركها فساد ؟ انا ، الفاني ، انا الذي ستحل منه الجسد ، ماذا أعمل هنا ، في الأبد ؟

منذ الأمس قطعت حوالي ثمانين كيلومتراً . لا بـد ان مردّ هذا الدوار الى الظمأ ، او الى الشمس. انها تبرق على سوق الغابة هذه التي تبدو متجمدة، تبدو من الزيت . تبرق فوق هذا اللّحـاء الكوني . لم يعد هنـا رمل ولا ثعالب . لم يعد هنـا غير سندان عرضه السماوات والأرض . وأنا أسير على هذا السندان . وأحس الشمس تقرع في رأسي . آه ! هناك ..

– يا هو ! يا هو !

– ليس هناك من شيء ، لا تضطرب ، انه الهذيان .

أنا أكلم نفسي هكذا ، لأن بي حاجة الى الاستغاثة بعقلي . ويصعب عليّ جداً ان أرفض ما أراه . يصعب عليّ جـــداً ان اركض الى هذه القافلة السائرة .. هناك .. أترى !..

– أبله ، أنت تعلم جيداً انك انت الذي يخترعها ..

– اذن فليس في الدنيا شيء حقيقي ..

لا شيء حقيقي إلا ذلك الصليب ، على بعـد عشرين كيلومتراً مني ، على الأكمة ، هذا الصليب او هذا الفنار ..

ولكن ليست هذه هي الوجهة التي تفضي الى البحر . اذن فهذا صليب . لقد درست الخريطة طوال الليل . وكان عملي لا فائدة منـه ، لأني اجهل موقعي . ولكني كنت أكبّ على جميـع الاشارات التي كانت تدلّني على وجود الانسان . وفي مكان ما ، اكتشفت حلقة صغيرة يعلوها صليب مماثل .

وعدت الى تعاريف الخريطة فقرأت : « مؤسسة دينيـة » . ورأيت قرب الصليب نقطة سوداء . وعدت الى التعاريف فقرأت : « بئر دائمة » فأصاب قلبي صدمة هائلة ، وعدت أقرأ في صوت عال : « بئر دائمة .. بئر دائمة .. بئر دائمة ! » علي بابا وكنوزه . ما قيمة هذا اذا انت قارنته ببئر دائمة ؟ ولاحظت في مكان آخر حلقتين بيضاوين . وقرأت في التعـاريف : « بئر موقتة » . كان هذا اقل جمالاً . ثم انك ترجـع الطرف فيما حولك فلا تجد شيئاً . أي شيء .

ها هي ذي المؤسسة الدينية ! لقد نصب الرهبان صليباً كبيراً على الأكمة حتى يدعو اليهم الغرقى ! وما عليَّ إلا ان اسير نحوه. ما عليَّ إلا ان اركض نحو هؤلاء الرهبان الدومينيكيين[1] ...

– ولكن ليس في ليبيا إلا اديرة قبطية .

– .. نحو هؤلاء الدومينيكيين المواظبين على عبادتهم . ان لديهم مطبخاً جميلاً رطيباً ، نوافذه ذات قضبان حمراء ، وفي فنائه مضخة صدئة رائعة . تحت المضخة الصدئة ، تحت المضخة الصدئة ، لا بـد انكم حزرتم .. تحت المضخة الصدئة البئر الدائمة ! آه ! لا بد ان عيداً سيعلن هناك عندما اقرع جرس الباب ، عندما أشد سقاطة الباب الكبير ..

– أبله ، انت تصف منزلاً في « البروفانس » هنــاك حيث لا يوجد حتى جرس .

– .. عندما اشد سقاطة الباب الكبير ! واذا البواب يرفـع ذراعيه الى السماء ويهتف بي : « انت رسول الرب ! » وسيدعو الرهبان كافة ، فيهرعون وهم يتدافعون بالمناكب ، ويعيّدون بي ، يحتفون بي كأني طفــل فقير ، ويدفعونني نحو المطبخ ويقولون لي : « ثانية واحدة ، ثانية واحدة يا بنيّ .. سنركض الى البئر الدائمة .. »

---

(١) نظام رهبنة عند الكاثوليكيين .

وانا أرتعش من سعادة ..

ولكن لا ، انا لا اريد ان ابكي ، لسبب وحيد هو ان ليس على الأكمة من صليب .

لم تكن وعود الغرب إلا أكاذيب . وانعطفت شمالاً ، الشمال طافح على الأفق بغناء البحر .

آه ! انت لا تكاد تجتاز هذه القمة حتى يترامى الأفق امامك من جديد . ها هي ذي اجمل مدينة في العالم .

– انت تعلم جيداً ان هذا سراب ..

اعلم جيداً ان هذا سراب . أنا لا اخدع ، انا ! ولكن اذا سرني انا ان انطلق نحو هذا السراب ؟ اذا سرني ، انا ، ان اعقد الآمال ؟ اذا سرني ان اهيم وجداً بهذه المدينة ذات الأفاريز التي تزينها الشمس كلها ؟ اذا سرني ان اسير امامي مباشرة ، بخطوات سريعة ، لأني لم أعـد احس تعبي ، لأني سعيد .. « بريفـو » ومسدسه ! دعوني اضحك ! انا أوثر سُكري . انا سكران . انا اموت من الظمأ .

وايقظني غسق الليل من سكرتي . توقفت فجأة وبي ذعر من ان اجدني على مثل هذا البعد الكبير . السراب يموت مع الغسق . ويتعرى الأفق من زينته المفرطة ، من قصوره وأثوابه الكهنوتية . انه افق صحراء .

– لقد امعنت في البعد ولا يلبث الليل ان يشتملك فيجب عليك انتظار النهار ، وغداً تكون آثارك قد انمحت ولن يكون لك وجود في أيما مكان .

– اذن فلأستمر في السير قدماً الى أمام .. علام النكوص مرة أخرى ؟ انا لا اريد ان يعيق مسيري عائق عندما اكون على وشك ان افتح ذراعي الى البحر ..

– اين رأيت البحر ؟ انك لن تبلغهُ ما حييت . ان ثلاثمائـة كيلومتر تفصلك عنه . وبريفو ينظر قرب « سيمون » ! وقد يكون انما لمحته قافلة ..

أجل سأعود ، ولكني ، قبل ان افعل سأنادي الناس :

- يا هو !

رباه ، ولكن هذا الكوكب مأهول ..

- يا هو ! يا ناس !..

بح صوتي . اضعت صوتي واحسستني مثيراً للسخرية اذ اصرخ على هـذا النحو .. وصحت مرة اخرى :

- يا ناس !

واذا لصوتي رنة تفاصح وادعاء ..

وقفلت راجعاً .

بعد مسير ساعتين لحت النيران التي كان يقذفها بريفو نحو السماء وقد ارعبه توهمه بأني قضيت . آه !.. ما اقل ما يهمني ان يفعل ..

ساعة أخرى من السير ايضاً .. ثم خمسمائة متر ، ثم مائـة متر ، ثم خمسون متراً .

آه !

وتوقفت مبهوراً ، دهشاً . كادت الفرحة ان تُغرِق قلبي فطفقت اكفكف من غَرْبِها . كانت الجمرات الباقيـة تضيء بريفو الذي يحادث عربيين اسندا ظهريهما الى المحرك . لم يكن قد لمحني . كان مشغولاً بفرحته هو اكثر ممـا ينبغي . آه ! لو اني انتظرت مثله .. اذن لكنت قـد فزت بالخلاص ! وصحت من اعماق الفرحة :

- يا هو !

واذا البدويان ينقزان وينظران إلي . واذا بريفو يتركهما ويتقدم وحده للقائي . وأبسط ذراعيّ فيسندني بريفو من مرفقي ، اذن فقد كنت اوشك ان اسقط ؟ وأقول له :

- واخيراً ها نحن أولاء !

– ماذا ؟

– العربيان !

– أي عربيين ؟

– العربيان اللذان هنا ، معك !..

وجعل بريفو ينظر إلي نظرة غريبة ، ووقر في قلبي انه يبوح لي ، على الرغم منه ، بسر ثقيل :

– لم يكن هنا عربيان قط ..

هذه المرة سأبكي حتماً .

٦

نحن نحيا هنا منذ تسع عشرة ساعة من غير ماء. ماذا شربنا منذ البارحة؟ بضع قطرات من الندى مع بزوغ الفجر ! ولكن ريح الشمال الشرقي مهيمنة لا تزال ، تقصر من تبخرنا . وهذه الشاشة لا تزال تُبَخّر في السماء بنايات الغيوم الشاهقة . اواه لو انها تنعطف حتى تبلغنا ، لو ان السماء تمطر ! ولكن السماء لا تمطر في الصحراء ابداً .

– تعـــال يا بريفو نقطّع المظلة مثلثات ، ونثبّت القِطع على الارض بالأحجار ، فاذا لم تغير الريح اتجاهها عصرنا القماش مـع الفجر واستطعنا ان نجمع الندى في احد خزانات الوقود .

وصففنا قطع القماش المثلثة تحت النجوم ، وانتزع بريفو خزاناً ولم يعـد امامنا إلا ان ننتظر طلوع النهار .

واكتشف بريفو بين الحطام برتقالة ، اعجوبة . فاقتسمناها . وشاع في جسدي اضطراب ولكن ما اقلها اذا عرفنـا اننا نحتاج الى عشرين لتراً من الماء .

كنت اتمدد قرب نارنا الليلية وانظر هذه الثمرة المضيئة وأقول في نفسي:

« الناس لا يعلمون ما البرتقالة .. » وأقول في نفسي ايضاً : « نحن محكوم علينا بالموت ، ولكن هـذا اليقين لا يحرمني ، مرة أخرى ، من لذاذتي . ان نصف البرتقالة هـذا الذي اضمه اليَّ يجلب إلي فرحة من أعظم الفرحات التي عرفتها في حياتي .. » وامدد على ظهري ، وامتص ثمرتي ، واعدُّ الشهب الساقطة . هاأنذا ، خلال دقيقة واحدة ، سعيد سعادة لا حد لها . واقول لنفسي ايضاً : « هذا العالم الذي نعيش في نظامه لا يمكن للانسان ان يسبر غوره اذا لم يحبس فيه ذاته » . الآن وحسب افهم سيجارة المحكوم بالاعدام والكأس التي يتناولهـا من الروم . لم اكن افهم كيف يرضى بهذا النصيب الزهيد . ولكن الحقيقة انـه يجد في هذين تلذذاً كبيراً . واذلك لتتصور هذا الانسان شجاعاً لأنـه يبتسم ، ولكنه يبتسم من شربه الروم . ولا يدري احد انه غـيّر زاوية النظر ، وانه صنع في هذه الساعة الأخيرة حياةً انسانية.

جمعنا كمية ضخمة من الماء : حوالي لترين . انتهى العطش ! نحن ناجون ، وإنا لشاربون !

وغرفت من الخزان مقدار كوب من التوتياء ، ولكن ذلك الماء كان ذا لون اخضر اصفر جميل ، وجدت له ، منذ الجرعة الاولى ، طعماً مخيفاً ، حتى اني على الرغـم من العطش الذي يعذبني اضطررت ، قبل ان اكمل الجرعة ، الى التقاط انفاسي . لقد كنت قادراً ، مـع ذلك ، على شرب الطين ، ولكن طعم المعدن المسموم ذاك كان اقوى من ظمئي .

وانظر الى بريفو الذي كان يدور على نفسه وعيناه الى الارض ، كما لو كان يبحث عن شيء ثمين أضاعه في موقفه ذلك . فجأة رأيته ينثني على نفسه ويتقيأ ، من غير ان يتوقف عن الدوران . بعـد ثلاثين ثانية جاء دوري . عصفت بي تشنجات من الحدة هنـاك حيث رحت أتقيأ راكعاً واصابعي مغروسة في الرمل . ولم نكن نتبادل أي كلام ، وظللنا حوالي ربع الساعة لا نتقيأ إلا قليلاً من الصفراء .

انتهت الغمة . أنا لم اعد احس إلا غثياناً بعيداً . ولكننا فقدنا املنـا الاخير . وأنا اجهل مـا اذا كان مرد فشلنا الى دهان المظلة او الى بقايا تيترا كلورور الفحم المتبقية في الخزان . كان علينا ان نبحث عن وعاء آخر او عن اقمشة اخرى .

اذن يجب ان نسرع ! النهار يطلع . فلنرحل ! سنهرب من هـذه الهضبة الملعونة ونسير بخطوات واسعة ، امامنا مباشرة ، حتى السقوط . يجب ان احذو حذو « غيوميه » في الآند : انا لا انفك افكر فيه طوال الوقت منذ البارحة . وسأخرق العرف الصريح الذي ينص على البقـاء قرب حطام الطائرة ، لأنهم لن يبحثوا عنا هنا ابداً .

مرة اخرى نكتشف اننـا لسنا الغرقى ، الغرقى هم اولئك الذين ينتظرون ! اولئك الذين يهددون صمتنا . اولئك الذين اضحى غرقهم خطأً مقيتاً . ان الانسان لا يطيق ألا يهرع نحوهم . غيوميه هو ايضاً ، عند مآبه من الآند ، روى لي انه كان يركض نحو الغرقى ! هـذه حقيقة كونية ، شاملة . ويقول لي بريفو :

ـ لو اني كنت وحيداً في هذه الدنيا لرقدت .

وقمنا نمشي الى الأمام مباشرة ، نحو الشرق ، نحو الشمال الشرقي . اذا كنا قد اجزنا النيـل فنحن الآن نغوص ، كل خطوة ، في شسوع الصحراء العربية .

لم أعد اذكر شيئاً من ذلك النهار . لا أذكر إلا عجلتي . عجلتي نحو اي شيء ، نحو سقوطي . اتذكر ايضاً أني مشيت وانا انظر الى الارض ، فقـد اشمأزت نفسي من السراب . ومن حين الى آخر كنا نستطلع البوصلة ونصحح وجهتنا . وفي بعض الاحيان كنا ايضاً نتمدد لنلتقط انفاسنا قليلاً . رميت في مكان ما ممطري المطاطي الذي كنت احتفظ به لليل . أنا لا اعـلم شيئاً

آخر . لم يتلملم شعث ذكرياتي الا مع طراوة المساء . انا ايضاً كنت رملاً من الرمل ينمحي كل شيء فيّ .

ويقر رأينا ، عند مغيب الشمس ، ان نخيّم . انا اعلم علم اليقين ان علينا ان نتابع المسير : هذه الليلة من غير ماء ستجهز علينا . ولكننا حملنا معنا قطع قماش المظلة . اذا لم يكن دهان المظلة هو مصدر السم فقد يُقيّض لنا ان نستطيع الشرب صباح الغد . يجب ان ننصب فخاخنا للندى ، مرة أخرى ، تحت النجوم .

ولكن السماء هذا المساء خالصة من الغيوم شمالاً . ولكن الريح قد تغير مزاجها . غيرت ايضاً من وجهتها . ها هي ذي انفاس الصحراء الساخنة تلامسنا . الوحش يستيقظ ! احسه يلحس ايدينا ووجهينا ..

ولكن اذا انا تابعت المسير فما أراني قاطعاً اكثر من عشرة كيلومترات . منذ ايام وانا على الظمأ قطعت اكثر من مائة وثمانين ..

ولكن في اللحظة التي توقفنا فيها قال لي بريفو :

— اقسم لك على ان هذه بحيرة .

— انت مجنون !

— في مثل هذه الساعة ، في الغسق ، هل يمكن ان يكون هذا سراباً ؟

ولا اجيب بكلمة . لقد كففت منذ امد بعيد عن تصديق عينيّ . قد لا يكون هذا سراباً ، ولكنه بدعة يخترعها جنوننا . كيف يصدق بريفو ، ولا يزال ؟

وبريفو يصر :

— انه على مسيرة عشرين دقيقة ، سأذهب ارى ..

هذا العناء يغيظني .

— اذهب وَرَهْ ، اذهب شم الهواء .. هذا ممتاز للصحة . ولكن حتى لو ان لبحيرتك هذه وجوداً فإنها تكون مالحة . اعلم ذلك جيداً ، مالحة او غير مالحة انها للشيطان . وفوق هذا كله هي غير موجودة .

كان بريفو قد ابتعد لا يلوي ، عيناه قد سمرتا الى بحيرته . انا اعرف هذه المغريات القهارة ، انا اعرفها ! وانا افكر : « ويوجد كذلك من يمشي في نومه فيقذف نفسه تحت القاطرات مباشرة » . واعلم ان بريفو لن يعود . سيتملكه دوار الفراغ فلا يسمه ان يقفل راجعاً ابداً . وسيسقط غير بعيد . ويموت هو من ناحيته ، وانا من ناحيتي ، وكل هذا على قدر زهيد من الاهمية !..

انا لا اجد في عدم المبالاة هذه التي وفدت عليّ فألاً حسناً . فقد سبق لي ان استشعرت مثل هذا السلام وأنا نصف غريق ، ولكني اغتنمت فرصة كوني منبطحاً على بطني فوق الحجارة ، ووجدتني اكتب رسالة تقرأ بعد الموت . ان رسالتي جميلة ، لائقة جداً ، اغدق فيها النصائح . وما أُعِدُّ قراءتها حتى يدخُل على قلبي ادلال غامض . وسيقال عنها : «انها رسالة رائعة خلفها لنا ! من المؤسف انه مات ! »

وأودُّ ان اعرف ايضاً اين انا من الموت ، فأحاول ان أجمع اللعاب : كم ساعة مضت علي لم أبصق فيها ؟ لم يعد في حلقي لعاب . واذا أغلقت فمي فان مادة دَبِقةٌ تلصق شفتي واحدة بالأخرى . وعلى الرغم من ذلك نجحت محاولاتي في البلع . وعيناي لما تمتلئا بعد بالانوار . وعندما يتبدى هذا المشهد الباهر لعينيّ فمعنى ذلك ان ساعتين قد بقيتا لي في الدنيا .

ويهبط الليل . لقد كبر الهلال منذ تلك الليلة . وبريفو لا يعود . وانا مستلق على الظهر اجتر هذه البداهات. انا اعثر في نفسي على انطباعة قديمة . احاول ان اعرف نفسي . انا .. انا .. انا مُبحرٌ ! كنت ذاهباً الى امريكا الجنوبية ، وكنت استلقي مثل هذا الاستلقاء على جسر السفينة الأعلى ، ورأس السارية يتأرجح طولاً وعرضاً في بطء شديد بين النجوم. هذا المركب يحتاج الى سارية ولكني استقله مع ذلك ، ميمماً وجهة لم تعد رهناً بجهودي. لقد رمى بي تجار الزنوج موثقاً على ظهر سفينة .

وافكر في بريفو الذي لا يعود . لم اسمعه يتشكى مرة واحدة . هذا

حسن جداً . لعلي كنت اعجز عن تحمل الشكوى . إلا ان بريفو لرجل .

آه ! ها هو ذا يحرك مصباحه على مسافة خمسمائة متر مني ! ضيّع آثاره ! ليس عندي مصباح فأرد عليه ، وانهض واصرخ فلا يسمعني ..

مصباح آخر يشع على بعد مئتي متر منه ، مصباح ثالث . يا الهي ، لقد اجمعوا امرهم وهم يبحثون عني !

وأصرخ :

– يا هو !

ولكنهم لا يسمعونني .

ويتابع المصابيح الثلاثة اشارات ندائها .

انا لست مجنوناً هذا المساء . أُحسني في حال حسنة . انا في سلام ، انظر شديد الانتباه . على بعد خمسمائة متر يوجد ثلاثة مصابيح .

– يا هو !

ولكن ، لا احد يسمعني ايضاً .

حينئذ عصف بي رعب قصير الامد . الرعب الوحيد الذي سأعرفه . آه ! انا لا ازال قادراً على الجري : « انتظروا .. انتظروا .. » سيقفلون راجعين ! سيبتعدون ، سيفتشون في مكان آخر وانا سأسقط ! سأسقط على وصيد الحياة ، حينما يكون ثمة اذرعة لاغاثتي !..

– يا هو ! يا هو !

– يا هو !

لقد سمعوني . انفاسي تتقطع ، انفاسي تحترق ولكني لا اكفّ عن العدو . اعدو في اتجاه الصوت : « يا هو ! وألمح بريفو فأسقط .

– آه ، لما لمحت كل هذه المصابيح !..

– أية مصابيح ؟

– هذه المرة لم يكن ما اشعر به خيبة امل ولكنه غضب اصم .

– وبحيرتك ؟

– كانت تبتعد عندما اتقدم . وسرت نحوها حوالى نصف ساعة . بعد نصف ساعة كانت شديدة البعد ، وعدت ، ولكني على يقين الآن من انها بحيرة ..

– انت مجنون ، مجنون اطلاقاً . آه ! لماذا فعلت ذلك .. لماذا ؟

ماذا فعل ؟ لماذا فعل ما فعل ؟ اوشك ان ابكي من حزازة وانا اجهل فيم حزازتي . وراح بريفو يوضح لي بصوت مختنق :

– كانت رغبتي شديدة في ان اجد ما يُشرب .. ان شفتيك بيضاوان جداً !

آه ! ان غضبي يهمد . وامرّ بيدي على جبهتي كأني افيق من نومي وأحسني محزون الفؤاد . واروي في لطف :

– لقد رأيت ، كما اراك ، رأيت في وضوح ، من غير امكان لخطأ ، ثلاثة انوار .. اقول لك اني رأيتها يا بريفو !

وصمت بريفو بادىء الأمر ، ولكنه اعترف آخر الأمر :

– اي نعم ، ان حالنا تسوء .

الارض سرعان ما تشع تحت هذا الجو الخالي من بخار الماء . لقد برد الجو برداً شديداً . ونهضت انا ومشيت . ولكن ما لبثت ان اخذتني رعدة لا تطاق . كان دمي الذي فقد ماءه سيء الدوران ، واخترقني برد صقيعي ، لم يكن برد الليل وحده . واذا فكاي يصطكان وجسدي كله يزلزله انتفاض قاتل . ولم اعد قادراً على استخدام المصباح الكهربائي لشدة ارتجاف يدي . لم اكن قط ذا حساسية مفرطة قِبَل البرد وسأموت من البرد ، فيا لها نتيجة غريبة من نتائج العطش !

لقد طرحت ممطري المطاطي في مكان ما حين اتعبني حمله في حمّارة القيظ ، والريح تسوء شيئاً فشيئاً ، وانا اكتشف ان ليس من عاصم يعصمك في الصحراء ولا ملاذ . الصحراء ملساء كالمرمر ، انها لا تشكل ظلالاً في النهار ،

وتسلمنا في الليل عارين عرياً تاماً الى الريح . ما من شجرة ، ما من سياج ، ما من حجر يظـّلنا . الريح تسد علينا السبل مثل فرسان يهاجمونك في ميدان مكشوف . وادور حول نفسي حتى اهرب منها . اضطجع وانهض . وسواء كنت مضطجعاً او واقفاً فاني ابدأ نهب هذا السوط من جليد ، وانا لا أطيق ان اعدو فقد انهدّت قواي ، ولا املك ان اهرب من القتلة فأقع على ركبتي ورأسي بين يدي تحت سيف الجلاد !

وانتبه الى حالي بعد قليل . كنت قـد نهضت وها أنذا امشي امامي مباشرة مرتعد الجسم ابداً ! اين انا ؟ آه ! لقد رحلت منــذ حين يسير وانا اسمع بريفو ! ان نداءاتي هي التي ايقظتني ..

واعود نحوه يزلزلني دائماً ذلك الارتعاش، ذلك الفهاق الذي يشمل جسدي كله ، واقول في نفسي : « ليس هذا هو البرد . انه شيء آخر. انها النهاية». لقد بلغت من الجفاف مبلغاً رهيباً . لقد مشيت طويلاً اول امس وأمس لما ذهبت وحدي .

أن اموت من البرد امر يشق علي . كنت أوثر سراباتي الداخلية . ذلك الصليب ، ذينك الاعرابيين ، تلك المصابيح . مهما يكن من امر فقـد بدأ ذلك يجتذبني . انا لا احب ان اجلد مثل العبد ..

ها أنذا راكع من جديد .

لقد حملنا معنا صيدلية صغيرة . مائة غرام من الاتير النقي ، مائة غرام من الكحول ٩٠ درجـة وحُـقاً من اليود . واحاول ان اشرب جرعتين او ثلاثاً من الاتير النقى . فكنت كأني ابتلـع سكاكين . ثم اتجرع قليلاً من الكحول ولكنه يغلق حنجرتي .

واحفر حفرة في الرمل واضطجع فيها واتغطى بالرمل . وجهي وحـده يطفو ، واكتشف بريفو اعواداً فأشعلها فتوقدت توقداً سرعان مـا خبا . بريفو يرفض ان يدفن نفسه في الرمل، انه يؤثر ان يحرك قدميه وهو مخطىء.

لا تزال حنجرتي مطقبة ، وهي دلالة سيئة ، ولكني احس اني احسن . احس اني هادىء ، احس اني هادىء خلاف كل امـل . اني ذاهب ، على الرغم مني ، في رحلة ، مكبلاً على مركب تجـار العبيد تحت النجوم . ولكن قد لا اكون تعيساً جداً . .

لم اعُدْ احس البرد ، على شرط ألا احرك اية عضلة . وانسى حينئـذ جسدي الهاجع تحت الرمــل . لن اتحرك ابداً ، وهكذا لن اتألم ابداً . والواقع اني حقاً لا أتألم إلا قليلاً . . ان وراء هذه العذابات كلها جوقة التعب والهذيان . ويستحيل كل شيء الى كتاب مصور يحوي حكايات عن الجـان رهيبة بعض الشيء . . منذ قليل كانت الريح تطاردني في سعار، وكنت ادور حول نفسي كالحيوان لأهرب منها. ثم لقيت كل العسر في القدرة على التنفس: كانت تجثم علي رُكبة تسحق صدري . ركبة . انا اكافح حتى اتخلص من وطأة الملاك . لم أكن قط وحيــداً في الصحراء . والآن ، اذ اكف عن الاعتقاد بما حولي انسحب الى ذاتي وأغمض العينين واحمل ، انا احس ذلك ، نحو حلم وادع : الانهار تهدأ في كثافة الليل .

وداعاً يا ايها الذين كنت احبُّ . انهـا ليست خطيئتي اذا كان الجسم الانساني لا يطيق جلاد العطش ثلاثـة ايام من غير شرب . لم اكن اظنني على هذا النحو اسير الينابيـع . لم تكن تخطر لي مثل هذه الحدود الضيقة . الظن الغالب ان الانسان قادر على ان يذهب امامـه مباشرة . الظنُّ ان الانسان حرٌّ ... ومن يظن مثل هذا الظن لا يفطن الى الحبل الذي يشده الى البئر ، الذي يشده مثل الحبل السُّرّي الى بطن الارض.فاذا خطا خطوةزائدة مات .

ما خلا عذابكم فلست آسف على شيء . مهما يكن من أمر فلقـد فزت بالنصيب الأوفى . واذا عُدت فسوف أعاود . انا في حاجة الى الحيـاة . في المدن لم تعد هناك حياة انسانية .

الأمر هنا لا يتعلق بالطيران . الطائرة ليست غاية ، انها وسيلة . الفلاح

ايضاً لا يحرث الارض من اجل محراثه . ولكنك بالطائرة تترك المدينة ومحاسبيها وتستعيد حقيقة ريفية .

انك تقوم بعمل انسان وتعرف هموم الانسان . انك تحتكُّ بالريح ، بالنجوم ، بالليل ، بالرمل ، بالبحر . وانك لتحتال على القوى الطبيعية . تنتظر الفجر مثلما ينتظر البستاني الربيع . تنتظر المحطة الجوية كالأرض الموعودة ، وتبحث عن حقيقتك في النجوم .

انا لن أشكو . طوال ثلاثة ايام مشيت ، وظمئت ، وسلكت مسالك في الرمال ، وصنعت من الندى مأملي . حاولت ان أصل اشباهي الذين نسيت اين كانوا يسكنون على الارض . وان هذه الهموم لهموم احياء . وأنا لا استطيع ان احكم انها أهم من اختيار الملهى اذا جاء المساء .

انا لم أعد افهم هؤلاء الذين يملأون قطارات الضواحي ، هؤلاء الناس ، الذين يحسبون انفسهم ناساً ، ويستحيلون بتأثير ضغط لا يحسونه ، مثل النمل ، الى لعبة في يد العادة . بم يملأون آحادهم الصغيرة التافهة حينما يكونون احراراً ؟

ذات مرة في روسيا سمعت موسيقى موزار تعزف في مصنع . وكتبت ذلك فتلقيت مائتي رسالة سب . انا لا اجدُ على اولئك الذين يفضلون الصخب والضجيج . انهم لا يعرفون غناءً آخر . وانما أجد على مروّج موسيقى الضجيج لأني لا احب ان يفسد الناس احد .

انا سعيد في مهنتي . احسُّني فلاح محطات . وأنا في قطار الضواحي فأحس احتضاري على نحو يختلف عما هو عليه هنا ! هنا ، مهما يكن من أمر ، يا للوثارة !..

ان اولئك الذين تذوقوا هذا الغذاء مرة لا ينسونه ابداً . أليس كذلك يا رفاقي ؟ وليست المسألة ان تحيا في خطر . هذا الدستور ثمين . مصارعو

الثيران لم يعجبوني قط . انه ليس الخطر هو الذي احبُّ . انا اعلم ماذا احب . انها الحياة .

يخيل إلي ان السماء ستتشح بالبياض . وأخرج من الرمل ذراعاً . إحدى قطع القماش تحت يدي . اتحسسها ولكنها تظل جافة . لننتظر . ان الندى يسقط مع الفجر . ولكن الفجر يَبْيَضُّ من غير ان يبـلَّ قماشنا . واذا أفكاري تختلط قليلاً ، واذا انا أسمعني أقول : « يوجد هنـا قلب جاف .. قلب جاف .. قلب جاف لا يعرف صنع الدموع ابداً !.. »

– لنرحل يا بريفو ! حنجرتنا لم تغلق بعد فيجب علينا ان نسير .

٧

وتهبُّ هذه الريح الشرقية التي تجفف الانسان في تسع عشرة ساعـة . بلعومي لما يغلق بعد ولكنه صلب ومؤلم . احس فيـه شيئاً يبشره . ولن تلبث ان تبدأ تلك السعلة التي وصفت لي ، والتي انتظرها . لساني يضايقني . ولكن اخطر ما في الأمر اني ارى بقعاً لامعة . عندما تتحول هذه البقـع الى ألسنة لهيب فسأضطجع .

وإنّـا لنسير مسرعَيْن . نفيد من طراوة الصباح . نحن نعـلم اننا لن نستطيع المسير في وقدة الشمس كما يقال . في وقدة الشمس ..

ليس لنا الحق في ان نَـعرق ، وكذلك ليس لنا حق في الانتظار . وليست هذه الطراوة إلا طراوة ثمانية عشرة بالمائة من الرطوبة . هـذه الريح التي تهبُّ تقدم من الصحراء . وتحت هذا الدعاب الـكاذب يتبخر دمنا .

لقد أكلنا قليلاً من العنب في اليوم الأول . ومنذ ثلاثة ايام ونصف برتقالة ونصف قطعة حلوى . بأي لعاب تُرانا نمضغ الطعـام اذا وجدناه ؟ ولكني لا أحس اي جوع . أنا لا احس إلا الظمأ . ويخيل إلي اني منذ اليوم احس ، اكثر من الظمأ ، بآثار الظمأ . هذه الحنجرة القاسية . هـذا اللسان من

جبس . هذا الجفاف وهذا المذاق المخيف في الفم . هذه الاحساسات جديدة عليّ . لا بدّ ان الماء سيشفيني منهـا ، ولكنه لن يشفيني من الذكريات التي تجمّعها هذا العقار . الظمأ يضحي اكثر فأكثر مرضاً وأقل فأقل رغبة .

ويخيل إلي ان الينابيع والأثمار تقدم إلي صوراً أقل قدرة على التمزيق . انا انسى شمشمة البرتقال كما يبدو لي أني نسيت الحنـــان . لعلي إنما أنسى كل شيء .

ونحن الآن جالسان ولكن يجب استئناف الرحيل . امتنعنا عن المشاوير الطويلة . فما ان نمشي خمسمائة متر حتى ننهار من التعب . وأحس فرحـة عظيمة في التمدد . ولكن يجب استئناف الرحيل .

المشهد يتغير . المسافات بين الاشجار تزداد . نحن نسير الآن على الرمل . امامنا على بعد كيلومترين كثبان . وعلى هذا الكثبان بقع من نباتات قصيرة. انا أوثر على دروع الفولاذ الرمل . انها الصحراء الشقراء . انهـا المفازة . وإخالني اعرفها .. وها نحن اولاء ينهكنا مئتا متر .

– سنمشي على اية حال حتى هذه النباتات .

انها حد نهائي . وسنتحقق ونحن في السيارة ، عندما سنقفو آثارنا بعـد ثمانية ايام بحثاً عن «السيمون» ان هذه المحاولة الاخيرة كانت ثمانين كيلومتراً. وقد سبق لي ان مشيت حوالي مائتي كيلومتر . فكيف أتابـع المسير ؟

أمس كنت أمشي من غير أمل . وأما اليوم فقد فقدت هذه الكلمات معناها . نحن نمشي اليوم لأننا نمشي . لا بد ان الثيران وقت الفلاحة تصنـع مثل هذا . ولكن لم يعد اليوم هناك من فردوس . ولم اعـد أؤمن بوجود برتقالات على الارض .

وأكفُّ عن اكتشاف أي شيء في نفسي ما خلا جفافاً كبيراً في القلب . سأسقط وانا لا يعرف اليأس إليّ من سبيل . لا احس حتى الشقاء : والحزن

يبدو لي عذباً كالماء . وانك لتشفق على نفسك وترثي لها مثـل صديق . ولكن لم يعد عند صديق .

وعندما يعثرون عليّ ويجدونني محترق العينين سيتخيلون اني اطلقت ألف نداء واني تعذبت عـذاب الشهادة . ولكن الاندفاعات ، ولكن الاسف ، ولكن العذابات اللطيفة ، لا تزال ثروات ونعمـاً . وانا امسيت صفر اليدين من الثروات والنعـم . الصبايا الرّيانات يعرفن الحزن عشية حبهن الاول ويذرفن الدموع . الحزن متصل بارتعاشات الحياة . وأنا لم يعد لي حزن ..

الصحراء هي انا . انا لم أعد قادراً على تكوين اللعاب ، لا ولم أعد أكوّن كذلك الصور العذبة التي كنت اتوجه اليهـا بشكاتي . الشمس جففت فيّ ينبوع الدموع .

ومع ذلك فماذا لمحت ؟ نسمة أمل مرت عليّ مثل ريح عاصفة تهبّ على البحر . ما هي الاشارة التي راحت تنذر غريزتي قبـل ان تلطم شعوري ؟ لم يتغير شيء ، ومع ذلك فكل شيء قد تغير . هذا الغطاء من رمل ، هذه النتوآت في الارض ، وهذه البقع القليلة من الخضرة لم تعـد تؤلف منظراً ولكن مسرحاً . مسرح لا يزال فارغاً ، ولكنه مهيأ تمامـاً . وانظر الى بريفو . ان الدهشة ذاتها تصيبه ولكنه هو أيضاً لا يفهم ما يخالجه .

أقسم لكم ان شيئاً سيحدث ..

اقسم لكم ان الصحراء قد دبّت فيها الحياة . اقسم لكم ان هذا الغياب ، ان هذا الصمت قد أضحيا فجأة اكثر قدرة على الاثارة من عجيج ساحة عامة ..

لقد نجونا ، فان على الرمل آثاراً !..

آه ! كنا ضيعنا اثر النوع الانساني ، انفصلنا عن القبيلة ، وجدنا انفسنا وحيدين في الدنيا ، هاجر الناس في مشارق الارض ومغاربها ونسونا ، وها نحن اولاء نكتشف اقدام الانسان المعجزة مطبوعة على الرمل .

– هنا يا بريفو رجلان افترقا .

— هنا أنيخ بعير ..
— هنا ..

ومع ذلك فلما ننجُ بعد . نحن لا يكفينا الانتظار . خلال بضع ساعات لن يستطيع احد إنقاذنا . ان مسيرة الظمآن الى النهاية سريعة جداً متى بدأت السعلة . وحنجرتنا ..

ولكني أؤمن بتلك القافلة التي تتأرجح في مكان ما ، في الصحراء .

اذن فقد سرنا أيضاً ، وفجأة سمعت صياح الديك . كان « غيوميه » قد قال لي : « قرب النهاية كنت أسمع ديكةً في الآند . وكنت اسمع ايضاً سككاً حديدية .. »

واتذكر قصته لحظة صياح الديك وأقول في نفسي : « هاتان عيناي هما اللتان خدعتاني بادىء الامر . وهذه لا ريب نتيجة الظمأ . وقد قاومت اذناي خيراً من عيني .. » ولكن بريفو امسكني من ذراعي :

— سمعت ؟

— ماذا ؟

— الديك !

— اذن .. اذن ..

اذن يقيناً ايها الابله انها الحياة ..

ورأيت آخر هلوساتي : رأيت ثلاثة كلاب تلاحقني . واما بريفو الذي كان ينظر مثلي فلم ير شيئاً . ولكننا نحن الاثنين ، نمدُّ اذرعتنا نحو هذا البدوي . نحن الاثنين نستغيث بكل ما في صدرنا من نَفَس حتى نناديه . نحن الاثنين نضحك من سعادة !..

ولكن صوتينا لا يصلان الى ثلاثين متراً . لقد يبست حبالنا الصوتية منذ دهر . وكنا يكلم احدنا الآخر بصوت خفيض ولكننا لم نلاحظ حتى ذلك! ولكن هذا البدوي وبعيره اللذين برزا من وراء الكثيب ها هما يبتعدان

وئيداً وئيداً . لعل هذا الانسان وحيد . لعل شيطان خلا قلبه من رحمة يظهرها لنا ويخفيه ..

ونحن لا نستطيع بعد ان نعدو !

ويظهر عربيٌ آخر على الكثيب وقد أظهر لنا جانب وجهه . وهدْرنا ولكن في خفوت . حينئذ رحنا نحرك اذرعتنا وخيّل الينا اننا نملأ السماء باشارات واسعة . ولكن ذلك البدوي لا ينفك ينظر الى اليمين ..

ولكن ها هوذا يشرع بربع استدارة من غير ان يعجل . ما ان يصبح وجهه الينا جميعه حتى يتم كل شيء . ما ان ينظر نحونا حتى يمحو الظمأ فينا والموت والسراب . انه استدار ربع استدارة وها هو العالم كله يتغير . ان حركة واحدة من جذعه ، لمحة واحدة من طرفه تخلق الحياة ، وبدا لي أشبه ما يكون بأحد الآلهة ..

انها لمعجزة .. ها هو يمشي نحونا على الرمل مثلما يمشي إله على الماء ..

ونظر الينا العربي في كل بساطة ، وضغط بيديه على كتفينا فأطعناه . وتمددنا . ليس هنا عروق ولا لغات ولا اختلافات .. هنا يوجد هذا البدوي الفقير الذي ركى على كتفينا يدي ملاك .

وانتظرنا وجبيننا في الرمل . وها نحن نشرب منبطحين على البطن ورأسنا في الجرن مثل عجلين . ويذعر البدوي مما يرى ويقسرنا كل لحظة على ان نقطع الشرب . ولكنه لا يكاد يدعنا حتى نعود فنغطس وجهنا جميعاً في الماء .

الماء !

ايها الماء ، انت ليس لك طعم ولا لون ولا رائحة ، ولا يستطاع تعريفك ، انك تُرَشف من غير ان تُعرف . انت لست بالضروري للحياة : انت الحياة . انت تَرُوّقنا بلذة لا تعلل بالحواس ابداً . بك انت تعود الينا

كل السلطات التي رفضناها . بنعمتك انت تنفتح فينـا جميع الينابيع التي نضبت في قلبنا .

انت اكبر ثروة في الدنيا . وانت ايضـاً الاشدُّ لطافة ، انت النقيُّ في في بطن الارض . قد يموت الانسان على ينبوع من الماء المغنيزي . قد يموت على خطوتين من بحيرة مالحة . قـــد يموت على الرغم من لترين من ندى اختلطت به بعض الاملاح . انت لا تقبل المزج ، لا تتحمـل الفساد ، انت إله َظنون ..

ولكنك تنشر في اعطافنا سعادة سهلة .

واما انت ايها البدوي من ليبيا ، الذي انقذتنا . فلن تنمحي من ذاكرتي ابداً . لن اذكر ابداً وجهك . انك **الانسان** ولسوف تتجلينَّ لي مع وجوه الناس جميعهم في آن . انت لم تنظر الينا قط وجهاً لوجه ولكنك عرفتنا . انت الاخ الحبيب . وانا ايضاً سأتعرفك بين الناس جميعهم .

وانك لتتجلى لي مستحماً بالنبالة والحفـاوة ، سيداً عظيماً يملك سلطة السقيا . كل اصدقـائي ، كل اعدائي يسيرون بشخصك انت نحوي ، وانا ليس لي عدو في الدنيا .

الفصل الثامن

الرجال

١

مرة أخرى سرت جنباً الى جنب وإحدى الحقائق من غير ان افهمها . خلتني ضعت ، خلتني ألامس قاع اليأس ، وما إن اقبل التسليم حتى اعرف السلام . ويخيل إليّ الانسان في مثل هذه الساعات يكتشف ذاته ويغدو صديق نفسه ذاتها . لا شيء إطلاقاً قادر على ان يقهر هذا الشعور بالتام الذي يرضى فينا لست ادري اية حاجة اساسية لم نكن نعرفها . لعل بونافوس الذي كان يتبدد في طراد الريح قد عرف هذا الصفاء . و« غيوميه » ايضاً في ثلوجه . كيف استطيع ان أنسى نفسي وأنا مدفون في الرمل حتى القذال ، يذبحني الظمأ على مهل ، كنت استشعر الدفء في قلبي تحت وشاح النجوم .

كيف نشجع في انفسنا هذا النوع من الخلاص ؟ كل ما في الانسان عجيب، وهذا ما نعلمه جيداً . انك تؤمن الخبز له حتى تفتح أمامه سبيل الخلق والابداع واذا هو يستسلم للكرى ، واذا الغازي المظفر يتراخى واذا الجواد الذي اغنيت يمسي شحيحاً . ماذا تهمنا المبادىء السياسية التي تزعم اسعاد الانسان اذا كنا لا نعلم بادىء الأمر اي نموذج انساني ستُسعد . من هو الذي سيولد؟

نحن لسنا سائمة في مرعى ، وظهور باسكال ٍ فقير يوقر وقراً اشدّ من ولادة بضعة مُنشَمين لا اسم لهم .

نحن لم نتعلم استشفاف الاساسي . ان كلا منا قد عرف أشد الافراح دفئاً في أشد المواضع بعداً عن الظن بأنها تبشر بالافراح . وقد خلفت هذه في قلوبنا حنيناً نتأسف معه حتى على ايام بؤسنا اذا كانت أيام البؤس هي التي اتاحت مثل هذه الأفراح . لقد تذوقنا جميعنا ، ونحن نلتقي رفاقنا ، سحر الذكريات السيئة .

ماذا نعلم ما خلا ان ثمة شرائط مجهولة تخصبنا ؟ أين تقطن حقيقة الانسان؟

الحقيقة ليست ما يمكن البرهان عليه . فاذا انمت اشجار البرتقال ، في هذه الأرض لا في سواها ، جذورها القوية وناءت بالأثمار ، فان هذه الأرض هي حقيقة أشجار البرتقال . واذا كان هذا الدين ، هذه الثقافة ، هذا السلّم من القيم ، هذا الشكل من النشاط الانساني ، اذا كانت هذه لا سواها هي التي تؤثر في الانسان هذا الكمال ، وتطلق فيه إسار سيد عظيم كان يجهل ذاته فإن سلّم القيم هذا ، هذه الثقافة ، هذا الشكل من النشاط هي حقيقة الانسان . والمنطق ؟ فليتدبر أمره لكي يبرر الحياة .

طوال هذا الكتاب تحدثت عن بضعة ٍ من اولئك الذين انصاعوا ، على ما يبدو ، لموهبة قاهرة ، الذين اختارو الصحراء او الخط ، كما قد يختار آخرون الدير ؛ ولكنني خِنتُ هدفي وبَدَوتُ ألزمكم بالاعجاب بادىء الأمر بالناس . وان ما يستحق الاعجاب بادىء ذي بدء انما هو التربة التي أسّستهم .

لا ريب في ان القابليات تلعب دوراً . واذا بعض الناس يسجنون انفسهم في حوانيتهم ، وبعض يتخذون سبيلهم ، ضربة لازب ، في اتجاه ضروري : ونحن نجد في تاريخ طفولتهم بذور الاندفاعات التي ستفسّر مصائرهم . ولكن التاريخ اذا قرىء بعد الأوان خداع . فهذه الاندفاعات نكاد نعثر عليها عند الجميع . لقد عرفنا جميعنا أصحاب دكاكين قد ظهروا ،

اثناء غرق او حريق ، اعظم من انفسهم . وهم انفسهم في هـذه الحال لا يُخدَعون عن معرفة صفة الكمال في انفسهم : هذا الحريق سيظل ليلة عمرهم كله . ولكن انعدام فرص جديدة ، ولكنّ انعدام التربة الصالحة ، ولكن انعدام الديانة الآمرة يعيدهم الى هجوعهم من غير ان يكونوا قد آمنوا بعظمة انفسهم . صحيح ان القابليات تعين الانسان على التحرر والخلاص ولكن من الضروري ايضاً تحرير القابليات .

ليالي الطيران ، ليالي الصحراء .. ههنـا تكمن فرص نادرة لا تعرض للناس كافة . ومع ذلك ، عندما تنعشهم الظروف يكشفون جميعهم عن الحاجات ذاتها . ولعلي لا أنأى عن موضوع اذا أنا رويت قصة ليلة في اسبانيا علمتني عن هذا الأمر تعليماً . لقد افضت في الحديث عن بعض النـاس وأودُّ ان اتحدث عن الجميع .

كان هذا في جبهة مدريد التي كنت ازورهـا بصفة مراسل صحفي ، وكنت اتعشى ذلك المساء في قاع ملجأ ارضي ، على مائدة نقيب فتى .

٢

وكنا نتجاذب الحديث لما رنّ جرس الهاتف ، وبدأ حوار طويل ، كان يدور حول هجوم محلي يُذيع مقر القيادة أوامره ، هجوم عبث وميؤوس منه يستهدف الاستيلاء على بضعة منازل ، في ذلك الحي العمالي ، قد احيلت الى صحون من الاسمنت . ويهز النقيب كتفيه ويعود الينا قائلاً : « ان الاوائل منا الذين سيظهرون .. » ثم دفع كأسين من الكونياك نحو احـد الرقباء الحاضرين ونحوي وقال للرقيب :

— ستخرج في الأوائل معي . اشرب واذهب نَم .

ويذهب الرقيب لينام . حول تلك المائـدة كنا حوالي عشرة اشخاص يسهرون . في هذه الحجرة الموصدة تماماً فلا يتسرب اي نور منها كان الضياء

من القسوة حيث كنت اخزر عيني واتجنبه . وزلقت نظرة منذ خمس دقائق من خلال طاقة ، ولما رفعت الخرقة التي تقنع الفتحة ابصرت خرائب المنازل المأهولة تغوص تحت ضوء القمر وتنشر نوراً مثل نور الكهوف . ولما اعدت الخرقة الى مكانها خيل إليّ اني امسح شعاع القمر مثل رشقة زيت . وأنا الآن احتفظ في عينَيَّ بصورة القلاع القاتمة .

هؤلاء الجنود لن يعودوا قطعاً ، ولكنهم لا ينبسون حياءً . هذا الهجوم من ضمن النظام . انك هنا تغرف من مؤونة الناس . انك تغرف من كور حَبّ . انك تنثر حفنة من الحبّ للبذار .

وإنا نشرب الكونياك . عن يميني معركة شطرنج حامية . عن يساري يتمازحون . أين انا ؟ ان رجلاً نصف سكران يدخل علينا . انه يداعب لحية مشتبكة كثة ويدحرج علينا عينين حانيتين . نظرته تنزلق على الكونياك . تستدير ثم تعود الى الكونياك ثم تنعطف نحو النقيب متوسلاً . ويتهافت النقيب ضاحكاً في عبه . الرجل ايضاً يضحك وقد راوده الأمل . ضحك خفيف يركض بين النظارة . النقيب يسحب القنينة في هدوء واذا نظرة الرجل تلعب لعبة اليأس ، وتبدأ هكذا لعبة صبيانية ، نوع من الباليه الصامت الذي يستمد عناصره ، من خلال كثافة دخان السجاير وانهاك الليلة البيضاء وصورة الهجوم القريب ، يستمد عناصره من الحلم .

ونحن نلعب ، سجناء في الدفء الوافر ، في قاع مركبنا ، بينما تتضاعف في الخارج الانفجارات التي تشبه ضربات البحر .

ولن يلبث هؤلاء الرجال ان يغسلوا في أمواه ليلة الحرب الدافقة عرقهم وكحولهم وأوضار انتظارهم . اني لأحسبهم اقرب ما يكونون الى التطهّر ، ولكنهم يرقصون الى ابعد ما يستطيعون رقصة السكير والقنينة . يستمرون الى ابعد ما يستطيعون الاستمرار في هذه الجولة من الشطرنج . انهم يعملون على إدامة الحياة ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . ولكنهم ربطوا منبهاً يتربع على رف . ولسوف يرنّ هذا الجرس ، فينتصب الرجال ويتمطون ويزررون

مناطقهم . ويسحب النقيب مسدسه من قرابه ، وتطير سكرة السكير ، ويسلك الجميع ، من غير ان يعجلوا ، هذا الممر الذي يصعد تصعيداً طفيفاً حتى المستطيل الازرق الذي يسبح فيه ضوء القمر . وسيقولون أشياء بسيطة مثل : « يا للهجوم اللعين . . » او : « الدنيا برد ! » ثم يغوصون .

ولما ازفت الساعة الموعودة حضرت استيقاظ الرقيب . كان يرقد متمدداً على سرير من الحديد في اطلال احد الاقبية . ونظرت اليه وهو نائم . كان يخيل إليّ اني اعرف طعم هذا النوم السعيد فلا يسهده قلـق ، كان يذكرني تلك الليلة الاولى في ليبيا ، اذ سقطنا ، بريفو وأنا ، وليس معنا إلا قليـل من الماء محكومين ، وشربنا من غير ان يعصف بنا ظمأ شديد ، ونمنا مرة ، مرة واحدة ، ساعتين كاملتين . خالجني وأنا أنام احساس بأني استخدم سلطة رائعة : سلطة رفض العالم الحاضر . وما دمت مـالك جسد لا يزال قادراً على ان يدعني في سلام ، فلا شيء يميّز فيّ – متى مـا دسست وجهي بين ذراعي – تلك الليلة من ليلة سعيدة .

وهكذا كان الرقيب يستريح ، متكوماً كالكرة ، من غير ان يكون له شكل انساني ، ولما جاء اولئك الذين أتوا لايقاظه فأشعلوا شمعة وركزوها على فم قنينة ، لم أميز ، لأول وهلة ، ما يبرز من هذه الكومة التي لا شكل لها ، إلا البسطار . بسطار ذا مسامير ووصلات حديدية، بسطار فاعل مياوم أو حمال في مرفأ .

هذا الانسان كان ينتعل أداة عمل وكل ما على بدنـه لم يكن إلا أدوات: الكنانة ، المسدسات ، الحمالات الجلدية ، النطاق . كان يلبس سرجاً وطوقاً وكل ُعدة حصان الحراثة . انك لترى في قرارة الاقبية ، في المغرب، أحجار رحى تديرها احصنة معمى . وهنـــا ، في ضوء الشمعة المرتعش الضارب الى الحمرة ، كانوا يوقظون حصاناً اعمى حتى يشد حجر طاحونه .

– قـُم يا رقيب !

وتحرك في بطء ، وهو يكشف عن وجـه لا يزال يغلفه النوم ، وغمغم

بما لست أدري من كلام ، ولكنه سرعان ما استدار نحو الجدار غير راغب في اليقظة ، غائصاً في اعمـاق السبات كأنه في سلام الرحم الأمومي ، كأنه تحت امواه عميقة يفتح قبضتيه ويغلقها على ما لست تدري من أشنة سوداء . وكان يجب ان تحل عقدة أصابعه . وجلسنا على سريره ، وامـّر احدنا ذراعه تحت عنقه في تلطف ، ورفع هذا الرأس الثقيل باسماً . وكان هـذا مثلما يجري في دفء الاسطبل اللطيف ، في عذوبة الخيل اذ يداعب بعضها اعناق بعض : « إيه ، ايها الرفيق ! » في حياتي لم أر أشد حناناً ورقـة . وقام الرقيب بآخر جهد للعودة الى أحلامه السعيدة ، لرفض عالمنـا المكون من من ديناميت وانهاك دليل صقيعي ؛ ولكن فات الاوان . ان شيئاً آتياً من الخارج يفرض نفسه . هكذا الحال حينما يوقظ جرس الاحد ، في المدرسة ، الولد المعاقب . كان قد نسي الرحلة واللوح الاسود والجزاء ، ومضى يحـلم بالالعاب في البرية ؛ عبث . الجرس يرنُ دائماً ويعيده ، في قسوة ، الى عدالة الناس . مثل ذلك الطفل هذا الرقيب الذي كان يستعيد لنفسه هـذا الجسد الذي هده التعب ، هذا الجسد الذي لم يكن يريده ، الذي سيعلم ، بعـد قليل ، في صقيع اليقظة ، الآلام في الاوصال ، ثم وقر الكسوة ، ثم هـذا الطراد الثقيل والموت . الموت ولا هذه اللزوجة التي للدم ، هناك حيث تغمس يديك لكي تنهض ، وهذا التنفس العسير ، هذا الجليد المطبق من كل جانب ؛ بلى ، الموت ولا شظف ان تموت . وأراني لا أكف عن التفكير وأنا انظر اليه في حزن يقظتي انا ، يوم وجب عليّ ان افتح عيني واذا انا ، من جديد ، يُحدِق بي الظمأ والشمس والرمل ، تحدق بي الحياة ، يحدق بي هذا الحلم الذي ليس لي به يد .

ولكن ها هو ذا واقفاً ينظر في اعيننا مباشرة :

ــ آن الأوان ؟

هنا يتراءى الرجل . هنا يُفلت من نبوءات المنطق : كان الرقيب يبتسم !

ما الذي أغراه بهذا الابتسام ؟ انا اذكر ليلة في باريس ، وكنا «مرموز» وأنا قد احتفلنا مع بضعة اصدقاء بما لست ادري من الذكريات ، ووجدنا أنفسنا مع الفجر على عتبة بار ، تغشى نفوسنا اننا تكلمنا كثيراً ، اننا شربنا كثيراً، اننا كنا تَعِبَيْن على غير جدوى .. ولكن بينما كانت السماء تميل الى الشحوب شد « مرموز » على ذراعيّ بغتة وبقوة جعلتني أحس اظافره : « أترى في هذه الساعة، في داكار..» كانت الساعة التي يفرك فيها الميكانيكيون عيونهم، ويسحبون أغطية مراوح الطائرات ، التي يذهب فيها ربان الطائره فيستطلع الارصاد ، ولا يعود يعمر الأرض إلا الرفاق . وكانت الشمس تتلون ، تهيء العيد ولكن من اجل الآخرين . كانت المائدة تبسط ولكننا لن نكون المدعوين . كان الآخرون يركضون وراء الاخطار ..

وانهى مرموز كلامه : يا للقذارة هنا .. »

وانت ايها الرقيب الى اية مأدبة كنت مدعواً،الى اية مأدبة تسوى الموت؟

لقد تلقيت اسرارك . رويت لي قصتك : محاسب صغير في مكان ما من برشلونة، كنت فيها تصف في الماضي ارقاماً من غير ان تهتم كثيراً للانقسامات التي في وطنك . ولكنّ احد رفاقك قد تطوع ، ثم رفيق ثان ، ثم ثالث ، واذا انت تعاني وانت دهش تحولاً غريباً : ظهرت لك شواغلك شيئاً فشيئاً لا غناء فيها . مباهجك ، همومك ، رفاهك الصغير ، كل هذا اضحى من عصر آخر . هنا لا يكمن المهم . وجاء اخيراً خبر مقتل احد رفاقك في ضاحية قرب مَلَقا. لم تكن القضية قضية صديق تود الثأر له . واما السياسة فلم تكن قد ازعجتك قط . ومع ذلك فقد مر هذا النبأ عليك ، على مصائرك الضيقة ، مرور إعصار بحري.ونظر اليك احد الرفاق ذلك الصباح:

– نذهب الى الجبهة ؟

– نذهب .

وذهبتا .

ووفدت عليّ صور لعلها ان تفسر هذه الحقيقة التي لم تعرف كيف تنقلها في كلمات وانما بداهتها هي التي هيمنت عليك .

عندما تمرّ اسراب البط البري ، في موسم المهاجرة ، تحدث حوادث مدهشة في المناطق التي تختارها هذه الاسراب . فالبط الداجن كأنما يجتذبه طيران الاسراب البرية الكبير على النسق المثلثي ، فيقوم في قفزات لا مهارة فيها . لقد ايقظ فيه النـداء المتوحش ما لا ادري من رواسب متوحشة ، واذا بط المزارع قد انقلب ، خلال دقيقة واحـدة ، الى طيور مهاجرة ، واذا في هذا الرأس الصغير الصلب الذي تتقاطر فيه صور متواضعة ، للغدير ، للديدان ، للدواجن الأخرى ، تمصف الأمداء القارّية ، طعم ريـح البحر العريض ، وجغرافية البحار . لقد كان الحيوان يجهل ان مخيمه قـد كان من السعة حيث استوعب كل هذه العجائب ، ولكن ها هوذا يصفق بجناحيه ، يحتقر الحَبّ ، يحتقر الديدان ، ويريد ان يصبح بطاً برياً .

ولكني استعيد على الاخص صورة غزلاني : لقد ربيت غزلاناً في جوبي . لقد ربينا كلنا غزلاناً هناك . كنا نحتجزها في فناء مكشوف مسيّج لأن الغزلان لا تستطيع ان تستغني عن الهواء الطلق ، وليس في الدنيـا حيوان اكثر هشاشة ورخاصة من الغزال . وهذه الغزلان قد اسرت في حداثة السن ومع ذلك فانها تحيا وترعى من يدك . وهي تدع لك ان تداعبهـا فتغط أفواهها الرطبة في راحة يدك . وتحسب انك استأنستها . تحسب انك جعلتها في منجى من الحزن المجهول الذي يطفىء الغزلان ، من غير جلبة ، ويجعـل موتها لطيفاً هيناً .. ولكن لا بد من ان يأتي اليوم الذي تراها فيه قـد ارتكَسَتْ بقرونها الصغيرة على الحواجز ، في اتجاه الصحراء . انها ممغنطة . وهي لا تعلم انها تهرب منك. والحليب الذي جلبتَـهُ لها قد شربته. وهي ما زالت تدعك تداعبها ، وتدفن افواهها في راحة كفك في عذوبة أشد .. ولكن ما ان تفلتها حتى تجدها ، بعد قفزة متظاهرة بالسعادة ، تعود الى غرس قرونها في الحاجز . فاذا لم تعد لا تتدخل في شأنها فانها تظل هناك ، لا تحاول حتى

قراع الحاجز ، ولكنها تتركّـى عليه وحسب، مطأطئة القذال ، تركي قرونها الصغيرة حتى الموت . أهو فصل الحب أم انه مجرد الحاجة الى الطراد حتى انبهار الانفاس ! انها تجهل الجواب . لم تكن عيونها قد فتحت بعـد حينما أسرها القناصون لك . فهي تجهل كل شيء عن الحرية في الرمال ، كما تجهـل عبق الذكر . ولكنك انت اكثر ذكاء منها ، وما تبحث عنه انت تعرفه ، انه المدى الذي يُكمِلها . انها تريد ان تصبح غزلاناً وترقص رقصهـا . انها تريد ان تعرف وهي منطلقة بسرعة مائـة وثلاثين كيلومتراً لذاذة الهروب على خط مستقيم تقطعه وثبات مفاجئة كما لو ان دفقات من اللهب تندفع هنا وهناك من الرمال. وماذا تهمُّ بنـات آوى اذا كانت حقيقة الغزلان في ان تتذوق الخوف ، الذي يضطرها هو وحده على ان تتفوق على نفسها ويحثها على ان تقوم بأعلى الوثبات . وماذا يهم الأسد اذا كانت حقيقة الغزلان في ان تبقر في ضربة برثن واحد تحت الشمس ! وأنت تنظر اليها وتفكر : ها هي ذي يتملكها الحنين . الحنين لما لست تدري .. موضوع الرغبـة موجود ولكن الكلمات التي تقولها بها غير موجودة ابداً .

ونحن ، ماذا ينقصنا ؟

ما عساك ان تجد هنا ايها الرقيب مما يبعث فيك حس ألا تخون قدرك ؟ لعلها هذه الذراع الاخوية التي رفعت رأسك المستسلم للكرى ، لعلهـا هذه الابتسامة الحنون التي لا ترثي ولكنها تشارك ؟ « إي ! ايهـا الرفيق .. » الرثاء يعني انه ما برح ثمة اثنان . ألا نزال مختلفَين . ولكن للوشائج ارتفاعاً يضيّع فيه العرفان والرثاء معناهما . ههنا يتنسم الانسان انفـــاس الدنيا ويستروحها مثل سجين أُطلق سراحه .

لقد عرفنا هذا الاتحاد حينما كنا نعبر في سرب من طائرتين منطقه « ريو دو أوزروا » التي لما تخضع بعد . انا ما سمعت قط ناجيـاً من الغرق يسكر منقذه . في أغلب الاحيان كنا نتبادل السباب اثنـاء العملية الشاقة ، عملية

نقل البريد من طائرة الى أخرى : « قذر ! أنا ما اصابني العطل إلا بذنبك، يهويك الكَلِب بالطيران على ارتفاع ألفي ميل ، في قلب تيارات متضادة ! لو انك لحقت بي على ارتفاع أقل لكنا الآن في بورت ايتيين ! » والآخر الذي كان يهب حياته يعترف في نفسه ان من المحتمل ان يكون قذراً . علام نشكر له أصلاً ؟ ان له لحقاً في حياتنا هو ايضاً . لقد كنا فرعي شجرة واحدة . وكنت مُدِلّاً بك انت الذي انقذتني !

علام يرثي لك ايها الرفيق من كان يُعِدُّك للموت ؟ كنتم على وشك ان تخوضوا غمرات ذلك الخطر بعضكم في سبيل بعض . وفي هذه الدقيقة تُكتشَفُ هذه الوحدة التي لا تحتاج الى كلام . اذا كنت رقيق الحال في برشلونة ، وحيداً بعد الانصراف من العمل ، اذا لم يكن لجسدك ذاته من ملاذ ، فقد كنت تستشعر ههنا عاطفة التحقق والتمام ، كنت تواصل الشامل؛ وها أنت ذا ، انت المنبوذ ، يستقبلك الحبّ .

انا لا اهتم ابداً بمعرفة ما اذا كانت الكلمات الضخمة ، التي ربما بذرها السياسيون في قلبك ، مخلصة او غير مخلصة ، منطقية او غير منطقية . اذا لقيت منك قبولاً حسناً مثلما يستطيع البذار ان « يأخذ » ، فما هذا إلا لأنها تستجيب لحاجاتك . انت وحدك الفيصل . ان الارض هي التي تعلم كيف تتعرف حبة القمح .

٣

نحن لا نتنفس إلا عندما يشدنا الى اخوتنا هدف مشترك يقع خارجنا . والتجربة تظهر لنا ان المحبة ليست في ان ينظر بعضنا الى بعض ولكن في ان ننظر معاً في اتجاه واحد . ولا يكون الرفاق رفاقاً إلا اذا اتحدوا في الرباط الواحد وتوقّلوا القنّة نفسها التي سيجتمعون فيها معاً . وإلا فلماذا كنا ، ونحن في عصر الرفاه والوثارة ، نستشعر فرحاً فياضاً في ان نتقاسم آخر ما تبقى لنا من الصحراء ؟ ما عسى ان تسوي نبوءات علماء الاجتماع

المعارضة ؟ ان كل من عرف منا الفرحة الكبرى ، فرحة الهبوط لازالة عطل أصاب رفيقاً لك في الصحراء يرى كل فرحة اخرى غير ذات معنى .

وربما كان هذا هو السبب في أن عالم اليوم يتصدع من حولنا. كلٌّ يتضرم حماسة لديانات تَعِدُ بهذا التمام . الكل يعبرون لنا ، في خلجات متناقضة ، عن الاندفاعات ذاتها . ونحن نختلف على طرائق هي أثمار محاكاتنا العقليـة وليست اثمار غاياتنا ، ان هذه واحدة .

نحن منذ الآن لا يدهشنا شيء . إن من لا يشك في المجهول الهاجـع في نفسه ، ولكنه يحسه وقد استيقظ مرة واحدة في قبو الفوضويين في برشلونة بسبب التضحية ، والتآزر ، بسبب صورة صارمة للعدالة .. هذا الايمان لن يعرف إلا حقيقة واحدة : حقيقة الفوضويين . واما الذي وقف ديدباناً مرة واحدة لحماية شعب من راهبات صغيرات راكعات ،وقد عصف بهن الفزع ، في اديرة اسبانيا ، هذا الانسان سيموت من اجل الكنيسة .

ولو انك اعترضت على « مرموز » ، حينما تغلغـل سلسلة الآند الشيلية ، والظفر يملأ قلبه ، وقلت له انه على خطأ ، وان رسالة يرسلها تاجر قد لا تسوي ان يخاطر لأجلها بحياتـه ، اذن لضحك مرموز منك . الحقيقة هي الانسان الذي كان يولد فيه وهو يعبر الآند .

واذا اردت ان تقنع اولئك الذين لا يرفضون الحرب بفظاعـة الحرب فلا تنعتهم بالبرابرة ولكن حاول ان تفهمه قبل الحكم عليه .

إفهم ذلك الضـابط من الجنوب الذي كان يقود ابان حرب الريف ، مخفراً أمامياً مغروساً في شعب بين جبلين معاديين . لقد وفد عليه مفاوضون هبطوا عليه من الجبل الغربي . وكانوا يشربون الشاي كما ينبغي لما بدأ إطلاق النار . وأراد النقيب ان يصرف المفاوضين حتى يفرغ للقتـال فردوا عليه قائلين : « نحن الآن ضيوفك ، والله لا يغفر لنا ان نتخلى عنك .. » وهكذا انضموا الى رجاله ، وانقذوا المخفر ، ثم تسلقوا نحو وكناتهم ، وكنات العقبان .

ولكن عشية ذلك اليوم الذي كانوا يتهيأون فيه للهجوم عليـه بدورهم ارسلوا الى النقيب سفراءهم يقولون :

– نحن أعنّاك ذلك المساء ..

– هذا صحيح ..

– احرقنا من اجلك ثلاثمائة خرطوشة ..

– صحيح .

– العدل ان تردوها لنا .

واذا النقيب ، وهو السيد العظيم ، لا يشاء ان يغنم مغنمـاً من جودهم ونبالتهم يعيد اليهم الخرطوش الذي سيستخدمونه ضده .

ان حقيقة الانسان هي تلك التي تصنع منه انساناً . وعندما يقارن هذا الانسان ، الذي عرف هذه اللياقة في الصلات ، هذه الاستقامة في اللعب ، هذه الهبة الطبيعية لاحترام يشمل الحياة ، عندما يقـارن هذا السمو الذي قيض له ، بتطايب شخصٍ مخادع يظهر الاخوة لهؤلاء العرب انفسهم بطبطبة وربة على اكتافهم ربما ارضتهم ولكنها تهينهم.. هذا الانسان لا يشعر نحوك ، اذا كنت تفكر على هذا النحو ، إلا برثاء لا يخلو من احتقار . وانـه هو الذي يكون على صواب .

ولكنك انت ايضاً على صواب في كرهك الحرب .

اذا اردت ان تفهم الانسان وحاجاته ، اذا اردت ان تعرفـه فيما هو جوهري عنده، فيجب ألا تضع بداهة حقائقك واحدة في مواجهة الاخرى ، اجل انتم على صواب . انتم جميعـكم على صواب . مصيب ذلك الذي يلقي جريرة مصائب الدنيـــا على الحُدب . فاذا نحن أعلنا الحرب على الحدب فسرعان ما نتعلم كيف نتحمس لها . نثـأر من جرائم الحدب . ولا شك في ان الحُـدبَ هم ايضاً يقترفون جرائم .

للكشف عن هذا الجوهري يجب ان ننسى لحظةً الاختلافات التي ما إن

تقبل حتى تؤدي الى "قدس" من الحقائق التي لا تتزعزع ، والى ما يستتبع ذلك من تعصب اعمى . انك تستطيع ان تصنف الناس الى ناس يمينيين وناس يساريين ، الى "حدب" وغير حدب ، الى فاشيين وديموقراطيين ، وتظل هذه الانواع من التمييز جامدة لا تقبل الاعتراض . ولكن الحقيقة انتم تعرفونها ، انها تلك التي تبسط العالم وليست تلك التي تشيع اللبس والاضطراب . الحقيقة هي اللغة التي تكشف عن الكونيّ ، عن الشامل . ان « نيوتن » لم « يكتشف » قانوناً طال عهد اختفائه على طريقة حل الأحاجي ، ولكنه قام بعملية خلاقة . أسس لغة انسانية قادرة على ان تعبر ، في آن ، عن سقوط تفاحة في بستان او ارتفاع الشمس . الحقيقة ليست ما يبرهن عليه ولكنها ما "يبتسط" .

فيم مناقشة الايديولوجيات ؟ اذا كانت كلها يبرهَن عليها بأنها كلها تتعارض ايضاً ، ومثل هذه المناقشات تدخل اليأس على سلام الانسان ؛ في حين ان الانسان اينما كان ، من حولنا ، يكشف عن الحاجات ذاتها .

نحن نريد ان نتحرر . إن من يضرب ضربة رفش يودّ ان يعرف معنى لضربة رفشه . وضربة الرفش التي تنزل بها يد السجين ، تلك التي تذل السجين ، ليست هي ضربة المنقب عن المعادن ذاتها. والسجن لا يكمن هناك حيث يضرب قوم بالرفش . انه ليس العذاب البدني . السجن هناك ، حيث لا معنى لضربات الرفش ، التي لا تصل ضاربها بالجماعة الانسانية .

واننا نود ان نهرب من السجن .

في اوروبا مليونا انسان لا معنى لهم ويريدون لو انهم يولدون . لقد اقتلعتهم الصناعة من نسقهم الريفي وسجنتهم في هذه الاقبية الضخمة التي تشبه محطات فرز القاطرات ، التي تتكدس فيها سكك القاطرات السوداء .

انهم يودّون ، في أعماق المدن العمالية ، ان يستيقظوا .

وثمة آخرون أخذتهم دوامة جميع المهن ، وحرمت عليهم افراح الرواد ،

الافراح الدينية ، افراح العلماء . وقد ذهب الظنُّ الى انه يكفي ، لكي يَعْظُموا ، ان تلبسهم وتطعمهم وتلبي حاجاتهم جميعها ، واذا انت تؤلف منهم، شيئاً فشيئاً، «بورجوازي كورتولين» الصغير وسياسي الضيعة، والتكني المغلق على الحياة الداخلية . واذا انت احسنت تعليمهم فما انت بالغ ان تثقفهم أبداً . وهنا رأي رخيص عن الثقافة يرى انها تعتمد على حشو الذاكرة بالقوانين . ان تلميذاً كسولاً من تلاميذ في صف الرياضيات يعلم عن الطبيعة والقوانين الطبيعية اكثر من «ديكارت» و« باسكال » . أهو قادر على ان يقوم بالمنجزات الروحية التي حققها هذان ؟

الكل يحسون بغموض كثير او قليل الحاجة الى الولادة . ولكن من الحلول ما يخدع . انك لا ريب قادر على تحرك حماسة الناس بالباسهم البدلات العسكرية . واذا هم يتلون تراتيل الحرب ويقتسمون الخبز مع رفاقهم ، ولعلهم قد وجدوا ما يبحثون عنه : طعم الشامل . ولكن ، من الخبز الذي سيقدم اليهم سيموتون .

انك تستطيع ان تنبش عن الأصنام المصنوعة من الخشب وتبعث الاساطير القديمة التي اثبتت ، ناجحة او غير ناجحة ، وجودها ، تستطيع ان تبعث التصوف البراهمي او الامبراطورية الرومانية ، تستطيع ان تسكر الالمان بخمرة كونهم من الألمان مواطنين و « بيتهوفن » ، تستطيع ان تسكر حتى وقّادي السفن . هذا يقيناً ، اسهل من ان تخرج من وقاد سفينة طوراً مثل « بيتهوفن » .

ولكن هذه الاصنام من أكلة اللحوم . ان من يقضي في سبيل المعارف او شفاء المرضى يخدم الحياة وهو يموت . وربما كان جميلاً ان يموت المرء في سبيل توسيع رقعة ارض ولكن حرب هذه الايام تخرب ما تزعم انها تعمره . ولم تعد المسألة اليوم ان يُضحّى بقليل من الدم لانعاش السلالة كلها . ان الحرب ، منذ ان اصبحت تستخدم الطائرة والغاز ، لم تعد غير جراحة

دموية . كلٌّ يتمترس في ملجأ جدار من الاسمنت ، كلٌّ لا يجد امامه إلا ان يطلق على الآخر ، ليل نهار ، اسراباً تنسفه في احشائه ، تفجر مراكز الحيوية ، تشلُّ انتاجه ومبادلاته . والنّصر لمن يهلك آخر من يهلك. والخصمان يهلكان معاً .

في عالم اضحى صحراء كان بنا ظمأ لرؤية الرفاق : ان طعم الخبز الذي يؤكل مع الرفاق جعلنا نتقبّل قيم الحرب . ولكننا لسنا في حاجة الى الحرب حتى نتحسس دفء الكتف التي تركض جوارنا في سباق نحو الهدف نفسه . الحرب تخدعنا . فالبغض لا يضيف شيئاً الى حماسة السباق .

فيم يبغض بعضنا بعضاً ؟ ونحن متكاتفون ، يقلّنا كوكب واحد ، ونحن ملاحو مركب واحـد . واذا كان حسناً ان تتعارض مدنيتان لأن لكلٍ نظامها الجديد ، فمن الفظاعة ان تفترس إحداهما الأخرى .

وما دام يكفي لخلاصنا ان نتعاون في سبيل وعي غاية تجمعنا بعضنا الى بعض فلا أقلّ من ان نبحث عنها هناك حيث توحد بين قلوبنا . ان الجراح الذي يطوف على مرضاه لا يصغي شكوى المريض الذي يفحص : انه يبحث من خلال هذا عن شفاء الانسان . وكذلك الفيزيائي حينما يتفكر في معادلاته التي تكاد تكون مقدسة يكشف عن الذرة وعن السديمة كليهما . وهكذا الأمر حتى بالنسبة الى الراعي البسيط . ذلك لأن هذا الانسان الذي يرعى في تواضع بضعة خراف تحت النجوم اذا هو وعى دوره فهم انه ليس مجرد خادم . انه ديدبان . وكل ديدبان مسؤول عن المملكة كلها .

اتظنون ان هذا الراعي لا يتشوق ان يعي ؟ وقع لي في جبهة مدريد أن زرت مدرسة قائمة على أكمة تبعد خمسمائة متر عن الخنادق ، وراء جدار صغير من الحجارة . كان مساعد يلقي فيها درساً في علم النبات . كان يعرض بيديه الاعضاء الهشة لاقحوانة فيجتذب لنفسه حجيجاً من أناس ملتحين كانوا يتخلصون من الطين الذي يغمرهم ، ويصعدون اليه على الرغم من القنابل

حجيجاً جم التقى . وما ان يصطفون حول المساعـد حتى يروحوا يصفون اليه جلوساً على الأرض وقد رَكـَـزوا اذقانهم الى ظاهر كفهم . وكانوا يقطبون حواجبهم ويصرون على اسنانهم ولا يفهمون من الدرس شيئاً كثيراً ولكن كان قد قيل لهم : « انتم أجلاف لم تكادوا تخرجون من اوجاركم وعليكم ان تستعيدوا انسانيتكم ! » وانهم ليتزاحمون بالمناكب ، ثقال الخطىء، لمواصلتها.

عندما يستيقظ وجداننا لدورنا ، عندمـا نعيه ، ولو كان أشد الادوار انطماساً فإننا نظفر بالسعادة . نستطيع حينئذ وحسب ان نحيـا في سلام ونموت في سلام ذلك لأن من يعطي الحياة معنى يعطي الموت معنى .

الموت فائق العذوبة عندما يكون ضمن نظام الاشياء ، عندما يسلم فلاح البروفانس الشيخ ، في نهاية حكمه ، الى بنيـه نصيبه من الماعز والزيتون ، حتى ينقلوها ، حينما يجيء دورهم ، الى اولاد اولادهم . ان الانسان لا يموت إلا نصف موت في الأسر الريفية . كل وجود هنا يتصدع في موعده مثـل قرن النبات ويسلمّ بذوره .

وقدتُ مرة على ثلاثة فلاحين يجلسون أمام سرير امهـم المـُحتضَـرة . لا ريب ان هذا مؤلم . كان الحبل السُرّي يُقطع للمرة الثانية . للمرة الثانيـة كانت عقدة تنحل : العقدة التي تربط جيلاً بآخر . كان هؤلاء الابناء الثلاثة يكتشفون انهم وحيدون ، ان عليهم ان يتعلموا كل شيء ، انهـم محرومون من مائدة الأسرة التي يجتمعون حولها في أيام الأعياد ، محرومون من قطب يجتذبهم جميعاً . ولكني أنشأت اكتشف في هـذا الانقطاع كذلك ان الحياة قد توهب مرة ثانية . ان بنيها هم ايضاً سيكونون على رأس رتـل ، نقاط اجتماع يجتمع فيها البنون ، الى ان يسلموا القيادة ، في الموعد الى هـذا البطن من الصغار الذين كانوا يلعبون في صحن الدار .

وطفقت انظر الى الام ، تلك الفلاحة ذات الوجه الهادىء القـاسي والشفتين المشدودتين ، ذلك الوجه الذي استحال الى قناع من حجر واذا أنا

اتعرف فيه على وجوه ابنائها . هذا الوجه قد استخدم في قَولَبة وجوههم في طبعها هذا الجسد استخدم في طبع اجسادهم ، هم هؤلاء النسخ الانسانية الجميلة . والآن ، ها هي ذي راقدة محطمة ولكن مثل ظرف ثمرة سُحبت ثمرته . ويجيء دور الابناء والبنات فيطبعون ، بلحمهم ودمهم، أناساً صغاراً. ان احداً لا يموت في المزرعة . ماتت الام فلتحي الام !

مؤلمة ولكنها بسيطة هذه الصورة للأسرة ، وهي تخلف على دربها اجساد موتاها الجميلين بشعورهم البيضاء جسداً جسداً ، وهي تسير ، خلال انسلاخاتها تلك ، نحو لست ادري اية حقيقة .

ولذلك بدا لي ناقوس الموتى ، ذلك المساء في تلك القرية الضائعة في الريف ، مفعماً لا باليأس ولكن بخفة خفية حنون ، هذا الناقوس الذي ينبىء ، بالرنين ذاته ، عن مراسم الدفن وحفلات التعميد ، كان يعلن مرة أخرى عن الانتقال من جيل الى آخر . واذا الناس لا يستشعرون إلا سلاماً عظيماً اذ يسمعونه يغني عقد قران عجوز مسكينة على الارض .

ان ما ينتقل على هذا النحو من جيل الى جيل ، في مثل التؤدة التي لنمو الشجرة ، انما هو الحياة ، ولكنه الوجدان كذلك . يا للصعود الخفيّ العميق ! من حمم بركاني متبرد ، من عجينة نجم ، من خلية حية تكاثرت بمعجزة ، خرجنا نحن ونمونا شيئاً فشيئاً حتى بلغنا ان نكتب الاشعار ونعرف وزن المجرّة .

الأم لم تنقل الحياة وحدها ولكنها علمت بنيها لغة ، أسلمتهم متاعاً تجمّع على مر العصور تجمعاً وئيداً ، أسلمتهم التركة الروحية التي ورثتها هي نفسها ، هذا النصيب الصغير من تقاليد ومفاهيم ، وأساطير الذي يؤلف الفرق بين «نيوتن» و«شكسبير» وبدائيي الكهوف .

وما نحس به عندما نجوع ، هذا الجوع الذي كان يدفع جنود اسبانيا نحو درس النبات تحت الرصاص ، هذا الجوع الذي دفع « مرموز » نحو الاطلنطي

الجنوبي ، والذي يدفع الآخر نحو قصيدته .. هو ان الخلـق ليس بمنته وأن علينا ان نعي أنفسنا والكون . أنّ علينا في الليل ان نقيم المعابر . ولا يجهل هذا إلا الذين يصنعون حكمتهم من لامبالاة يحسبونها أنانيـة ؛ ولكن كل شيء يكذب حكمتهم هذه . ايهـا الرفاق ، يا رفاقي إني اشهدكم : متى احسسنا أننا سعداء ؟

٤

وهاأنذا اتذكر ، في آخر صفحة من هـذا الكتاب ، هؤلاء الموظفين الشيوخ الذين كانوا المشيعين في فجر الرحلة الاولى ، حينما كنا نستعد للارتقاء الى مرتبة الانسان وقد اسعدنا الحظ فكنا المختارين . لقد كانوا مع ذلـك اشباهنا ولكنهم لم يكونوا يدرون ان بهم جوعاً .

ما اكثر الناس الذين يُتركون في سباتهم يعمهون .

منذ بضعة سنوات ، اثنـاء رحلة طويلة في السكة الحديدية ، اردت ان ازور هذا الوطن السيار الذي أوصدت عليّ أبوابه ثلاثة أيام ، أسير ثلاثـة أيام من تلك الضجة التي تشبه قرقعة الحجارة التي يدفعهـا بحر غاصب ، ونهضت . قمت أقطع القطار ، حوالي الساعة الواحدة صباحاً ، من اقصـاه الى اقصاه . كانت مقطورات النوم فارغـة . وكانت عربات الدرجة الاولى فارغة .

واما عربات الدرجة الثالثة فكانت تقل مئـات من العمال البولونيين الذين كانوا يذهبون الى بولونيا بعد ان سرحوا من فرنسا . وكنت اقطع الممرات وأنا أتخطى أجساداً . وكنت اتوقف فأنظر . في احـدى المقطورات غير المقسمة التي كانت تشبه مهجع جنود ، والتي كانت تفوح منهـا روائح تشبه روائح الثكنات او مخـافر الشرطة رأيت شعباً بأكمله مختلطاً تهزه حركات القطار ويقف تحت المصابيح الباهتة . شعب بأكمله يغوص في الاحلام السيئة

ويعود الى بؤسه . رؤوس ضخمة محلوقة تتدحرج على خشب المقاعد . رجال، نساء ، أطفال ، كلهم يتلفتون يمنة ويسرة كأنما تهاجمهم كل هذه الصنوف من الضجيج ، كل هذه الزعازع التي كانت تهددهم في نسيانهم . وهم ما ظفروا بضيافة النوم الطيب .

وها هم اولاء يبدون لي وقد فقدوا بعض الشيء صفة انسانية اذ تقذفهم التيارات الاقتصادية من آخر اوروبا الى آخرها ، تقتلعهم من المنزل الصغير في الشمال ، من الجنينة الزهيدة التي لا تحوي غير ثلاثة شقوف من ازهار الجيرانيوم والتي كنت لاحظتها من قبل من شباك أحد عمال المناجم البولونيين. ولم يكونوا قد حملوا معهم إلا ماعون المطبخ والاغطية والسجف ، فرموها حزمة سيئة الربط ، مبعجة مفتقة . ولكن كل ما داعبوه او شغفوه حباً ، كل ما نجحوا في استئناسه خلال أربع أو خمس سنوات من إقامة في فرنسا ، القط ، الكلب ، والجيرانيوم .. وجب عليهم ان يضحوا به ولم يحملوا معهم إلا قرقعة المطبخ هذه .

وكان رضيع يرضع من ثدي أم متعبة حتى بدت تستسلم للرقاد . الحياة تنتقل في عبث هذه الرحلة وفوضاها من انسان الى انسان . ونظرت الى الاب . جمجمة وازنة وعارية كالحجر . جسد منطو في شطف النوم، سجين في ثياب العمل ، مصنوع من نتوءات وحفر . كان الانسان يشبه كومة صلصال . هكذا يبدو في الليل ما يلفظه البحر شيئاً لا شكل له ينوء على مقاعد أسواق الخضرة . وفكرت : المشكلة لا تكمن بأية حال في هذا البؤس ، في هذه القذارة لا ولا في هذا القبح . ولكن هذا الرجل نفسه وهذه المرأة نفسها قد تعارفا ذات يوم ، ولا بدّ ان الرجل ابتسم للمرأة : لا بد انه حمل اليها بعد العمل أزهاراً . وربما كان ، لخجله وخرقه ، يرتجف ان يقابل بالاعراض والتهكم . ولكن المرأة ، يدفعها غنج طبيعي ، المرأة الواثقة من سحرها ، راحت أغلب الظن تتلذذ بتعذيبه . واذا هو ، ولم يبق فيه الآن غير آلة للحفر او آلة للطرق، يحس في قلبه اللوعة اللذيذة . اللغز في

انها استحالا الى هذه الحزمة من الصلصال . في اية بوتقة رهيبة قد مرا حتى تسمها هذه المياسم ؟ ان حيوانا هرما يظل محتفظاً برشاقته . فعلام يصاب هذا الفضاء الانساني الجميل بالتلف ؟

وتابعت رحلتي بين هذا الشعب الذي اضطرب نومه مثل محل للدعارة . كانت تطفو ضوضاء، مختلطة مصنوعة من غطيط أجش وشكاوى قائمة وزحلك بساطير اولئك الذين ارتضي جانب منهم فانقلبوا يجربون الآخر . وبين هـذا كله فرقعة الصخور تدفعها أمواج البحر مخنوقة لا يهدأ لها صوت .

وجلست أمام زوجين . كان الطفل قد اتخذ له ، كيفما اتفق ، فجوة بين الرجل والمرأة ونام . ولكنه كان يتقلب في منامه فيظهر لي وجهه تحت ضوء المصباح الباهت . آه ! يا للوجه الآسر ! لقـد ولد من هذين الزوجين ثمرة ذهبية . من هذه الاسمال ولد هذا الانتصار للفتنة والعذوبة . وانحنيت على هذا الجبين الناعم ، على هذه الضمة العذبة للشفتين . وقلت لنفسي : ها هوذا وجه موسيقار ، ها هو ذا «موزار» طفلا ، ها هو ذا وعد جميل للحياة . لم يكن أمراء الاساطير الصغار ليختلفوا عنه : فلو انـه حُمِيَ ، حُفّ به ، ثُقّـف، فما عساه ان يغدو ! عندما يتفتق برعم مطـّعم في الحدائق عن وردة جديدة يتدافـع نحوه البستانيون . انهم يعزلون الوردة ، يثقفون الوردة ، يخصونها بالعناية . ولكن من لنا ببستاني للناس ! ان « موزار» الطفل سيبسمه ميسم الآلة مثله مثل الآخرين . « موزار » سيصنع أرفع أفراحه من موسيقى فاسدة في عفن الملاهي الرخيصة . واذا موزار هذا مقضي عليه .

وأعود أتطرق الى المقطورة ، وأقول في نفسي : هؤلاء الناس لم يعودوا يتشكّـون من قدرهم . وليست الرحمة هي التي تعذبني بأية حـال . ليست القضية ان احنو على قرح مفتوح ابدياً . ان اولئك الذين يحملونه في جنوبهم لا يحسون به . إنه شيء كالنوع الانساني وليس الفرد هو المجّرح هنـا ، هو المصاب . أنا لا أؤمن بالشفقة . ان ما يعذبني ليس هو هذا البؤس الذي قـد يستقر فيـه الانسان على أية حال مثلما يستقر في الكسل . ان أجيالاً من

الشرقيين يحيون في القذارة ينعمون . ان ما يعذبني لا تشفيه الوجبات الشعبية . انا لا تعذبني هذه الحفر ولا هذه الحدبات او هذا القبح . ما يعذبني هو اذا شئت ، في كل من هؤلاء الناس ، « موزار » الذي مات غيلة .



الروح وحده اذا نفخ في الصلصال استطاع ان يخلق الانسان .

عويدات للنشر والطباعة ٢٠٠٨/١١١٥

ANTOINE DE SAINT-EXUPERY

TERRE DES HOMMES

Traduction arabe

Hasib Al - Kayali



EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth-Liban